التَّصْويرُ اللَّونِي فِي الشِّعْرِ الجاهليّ
علاقتهُ بالدِّين والأسطورة والحالة النَّفسيَّة للشَّاعر

دكتور/ عبد الله عطيَّة عبد الله الزهراني
أستاذ مساعد في كلية الملك عبد الله للدفاع الجوي بالطائف

ملخص البحث

عنوان البحث : التَّصْويرُ اللَّونِي فِي الشِّعْرِ الجاهليّ، علاقتهُ بالدِّين والأسطورة والحالة النَّفسيَّة للشَّاعر .

الحمد لله رب العالمين والصَّلاة والسَّلام على خير خلق الله محمد – صلى الله عليه وسلم – أما بعد .. فقد قُسم هذا البحث قسْمين :

الفصل الأول : علاقة التَّصوير اللَّوني فِي الشِّعر الجاهلي بالدِّين والأسطورة .

وكان في أربعة مباحث، هي :

- المبحث الأول : تشبيه المرأة بالدُّمية .
- المبحث الثَّاني : تشبيه المرأة بالظَّبية والغزال .
- المبحث الثَّالث : تشبيه المرأة بالمصباح والضوء والنور والنَّجم والقمر .
- المبحث الرَّابع : تشبيه المرأة بالبيضة .

الفصل الثَّاني : علاقة التَّصوير اللَّوني فِي الشِّعْر الجاهلي بالْحالة النَّفسية .

وكان في خمسة مباحث، هي :

- المبحث الأول :علاقة اللَّون الأسود بالحالة النَّفسية للشَّاعر الجاهلي .
- المبحث الثَّاني :علاقة اللَّون الأبيض بالحالة النَّفسية للشَّاعر الجاهلي .
- المبحث الثَّالث:علاقة لون الغُبار ولون الرَّماد بالحالة النَّفسية للشَّاعر الجاهلي.
- المبحث الرَّابع : علاقة اللَّون الأحمر بالحالة النَّفسيَّة عند الشَّاعر الجاهلي .
- المبحث الخامس : علاقة الألوان الأصفر والأخضر والأزرق بالحالة النَّفسية عند الشَّاعر الجاهلي .

ثم خُتمت الدراسة بذكر ما توصل إليه الباحث من نتائج وتوصيات ، وسرْدٍ للمصادر والمراجع التي استفاد منها .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصَّالحات .

المقدِّمة :

إنَّ علاقتي بالأدب الجاهلي علاقة وثيقة الوشائج، وكلما قرأتُ حوله ازددتُ محبة وإعجابًا ورغبة في البحث في كثير من الجوانب التي تثير قراءتي حولها العديد من التساؤلات . ومن قبل مرحلة دراساتي العليا وأنا أحاول جاهدًا إرضاء تلك الرغبة، حتَّى كان بحثي في الدكتوراه حول فَرَس امرئ القيس بين الواقع والرؤية الشِّعريَّة؛ فأشعل في نفسي شغفًا بالمضي في نفس الطريق؛ حيث يسَّر الله لي كتابة عدد من الأبحاث تناولتُ فيها قضايا شتَّى في الأدب الجاهلي؛ فشعرتُ بالمتعة كلما أنجَزْتُ وكلما بحثت ، وكانت قضية الألوان من القضايا المهمة التي وظَّفها الشعراء الجاهليون كثيرًا في أشعارهم ، ولم أشأ أن أتجاوز ذلك دون محاولة التعرض لهذه القضية والاجتهاد في الكشف عن رمزيَّة الصُّور اللَّونيَّة التي أبدعها كثيرٌ من شعراء الجاهليَّة ، ولماذا تعمدوا استخدام ألوانٍ معيَّنَة في تلك اللوحات المنتشرة في قصائدهم ؟ ولا أزعمُ أنَّ دراستي هذه ستكون استقصاءً شاملًا وإلمامًا بقضية التَّصوير اللَّوني في الشِّعْر الجاهلي من جميع جوانبها؛ فذلك مُحال في دراسة كهذه الدراسة اليسيرة؛ لهذا حصرتُ البحث في عدد من الشُّعراء الكبار في العصر الجاهلي كامرئ القيس وزهير بن أبي سُلمى وعنترة بن شدَّاد ولبيد بن ربيعة والنَّابغة الذبياني وعبيد بن الأبرص وطَرَفَة بن العبد ... وأخذتُ من أشعارهم في هذه القضية ما خدمني فقط في محاولة تأصيل الدِّلالات اللَّونيَّة التي استفاد منها الشَّاعر الجاهلي في صُوَرِهِ ومعانيه؛ بمعنى أنني أخذتُ عيِّنَات من أشعار أولئك الشُّعراء فيما أبدعوه من تصوير لونيّ، تاركًا استقصاء الظَّاهرة – عند كلِّ شاعر على حِدة– لمن يأتي بعد ذلك من الإخوة الباحثين في مرحَلَتَي الماجستير والدكتوراه؛ فأمامهم متَّسع ومادة علمية غزيرة .

ومن جانب آخر فقد حاولتُ أن أوضَّح الوظيفة الفنيَّة للَّون في الشِّعر الجاهلي والكشف عن المعاني التي رمز إليها الشَّاعر الجاهلي من خلال اللَّون ، وليقيني باتساع هذه القضيَّة فقد حصرتُ دراستي في علاقة التَّصوير اللَّوني في الشِّعر الجاهلي بالدِّين والأسطورة من ناحية والحالة النَّفسية للشَّاعر الجاهلي من ناحية أخرى؛ فكانت دراستي في فصلَيْن هما :

الفصل الأول : علاقة التَّصوير اللَّوني فِي الشِّعر الجاهلي بالدِّين والأسطورة .

وكان في أربعة مباحث، هي :

- المبحث الأول : تشبيه المرأة بالدُّمية .
- المبحث الثَّاني : تشبيه المرأة بالظَّبية والغزال .
- المبحث الثَّالث : تشبيه المرأة بالمصباح والضوء والنور والنَّجم والقمر .
- المبحث الرَّابع : تشبيه المرأة بالبيضة .

الفصل الثَّاني : علاقة التَّصوير اللَّوني فِي الشِّعْر الجاهلي بالْحالة النَّفسية .

وكان في خمسة مباحث، هي :

- المبحث الأول :علاقة اللَّون الأسود بالحالة النَّفسية للشَّاعر الجاهلي .
- المبحث الثَّاني :علاقة اللَّون الأبيض بالحالة النَّفسية للشَّاعر الجاهلي .
- المبحث الثَّالث: علاقة لون الغُبار ولون الرَّماد بالحالة النَّفسية للشَّاعر الجاهلي .
- المبحث الرَّابع : علاقة اللَّون الأحمر بالحالة النَّفسيَّة عند الشَّاعر الجاهلي .
- المبحث الخامس : علاقة الألوان الأصفر والأخضر والأزرق بالحالة النَّفسية عند الشَّاعر الجاهلي .

وقد أسفرت الدراسة عن عدد من النتائج هي :

- اقتران المرأة في الشِّعر الجاهلي كثيرًا باللَّون الأبيض .
- تشبيه المرأة بالدُّمية في الشعر الجاهلي كان لإضفاء صفات الشَّرف والصَّفاء والعفة والتَّمَنُّع عليها .
- تشبيه المرأة بالغزالة في الشعر الجاهلي كان من قبيل تشبيهها بالشمس، في إشارة منهم إلى رمزيَّة القداسة والمكانة المعتبرة للمرأة في الفكر العربي الجاهلي من جهة، وفي إشارة إلى رمزيَّة المرأة المثال في صورة الحسن الأنثوي من جهة ثانية ، وفي إشارة إلى رمزيَّة المرأة الأم والمرأة الحبيبة المنشودة من جهة ثالثة .
- تشبيه الشعراء الجاهليين المرأة بالمصباح والضوء والنور والنَّجم والقمر انعكاسٌ لمكانتها المقدَّسة في الجاهلية .
- شبَّه الشُّعراء الجاهليون المرأة بالبيضة في رمزيَّة منهم لصحتها وسلامتها، والمحافظة عليها وحمايتها، ولبياضها وصفاء لونها ونقائه، ولخصوبتها؛ لأنَّ ظهور المرأة في الشعر الجاهلي بيضاء اللَّون يأتي من التَّفاؤل باستمرار الحياة وتجدد الأجيال وتتابع النَّسْل .

- ارتبط اللَّون الأسود عند العرب في الجاهلية بالظلام، والقبر والموت، لكنهم كذلك تفاءلوا بهذا اللَّون في بعض المواضع .

- رَمَزَ اللَّون الأبيض عند العرب في الجاهلية في الغالب الأعم للنقاء والطَّهارة والأمل والنور الإلهي والحياة والتَّفاؤل والجمال والسَّلام .

- ارتبط لون الغبار عند الجاهليين بالحزن والكآبة والتَّشاؤم .

- ارتبط لون الرَّماد عند الجاهليين بالدَّمار والهلاك والمصائب العظيمة، والديار الخالية المقفرة، وهو كذلك لونٌ له رمزيته المرتبطة في مخيلة العربي في الجاهلية بالأسى والحزن وألم الفقد .

- تنوعت دلالات اللون الأحمر عند الجاهليين، لكنه في الغالب لونُ شؤمٍ عندهم؛ فالموتُ أحمر، والبأس أحمر، والسَّنَةُ الشَّديدة حمراء، وشدَّة القيظ حَمَارَّةٌ، وجهنم حمراء .

- تفاءل العربُ في الجاهلية باللَّون الأخضر؛ فهو عندهم رمزٌ للنعيم والخير والحياة الرغيدة .

- الأصفرُ لونٌ ارتبط عند العرب في الجاهلية بالشَّمس؛ لما لها من قداسة عندهم، وارتبط بالطِّيْب والزينة والذهب، لكنه من جهة أخرى لون له دلالته المشؤومة عند الجاهليين من حيث ارتباطه بالمرض والذبول والموت من جهة وارتباطه بالذل والانكسار من جهة ثانية .

- الأزرق لونٌ مكروه عند العرب في الجاهلية؛ مما جعلهم يصبغون به في صُورِهم عيون الأعداء والجوارح من الطَّير والحيَّات وبعض الهوام، ولَوَّنُوا به صور التَّشاؤم عندهم؛ كتشاؤمهم من البسوس وهي زرقاء العينَيْن، والزَّبَّاء وزرقاء اليمامة، ووصفوا كلَّ عدوٍّ بالزُّرْقَة.

وقد اطَّلعتُ على بعض الدراسات السَّابقة حول موضوع دراستي؛ ومنها :

- المستوى الدلالي في شعر عنترة د. خليل عودة .
- فصل عن شاعرية الألوان في كتاب قراءة ثانية في شعر امرئ القيس لمحمد عبد المطلب .
- مستويات التشكيل اللوني في الشعر الجاهلي . سمية عبد الرحيم العلمي .
- دلالات الألوان بين الشعر الجاهلي والقرآن الكريم . عماد جبار .

أمَّا المنهج الذي اعتمدتُه في هذه الدراسة فكان منهجًا تكامليًّا؛ حيث استفدتُ من النَّظريات الحديثة في علم النَّفس وعلم الميثولوجيا، والمنهج السيميائي في تحليل بعض النصوص والمنهج الوصفي والمنهج التاريخي قليلًا .

التمهيد :

تتعدَّد الفاظ الألوان في اللغة العربية، وللَّون الواحد درجات كثيرة يختلف وفقًا لها مسمَّى كل درجة لونيَّة، ودلالات اللَّون تختلف باختلاف الحقل الذي يوجد فيه ، فاللَّون الأسود مثلًا له دلالته في موضع وله دلالته المختلفة عنها في موضع آخر؛ لذلك برزت دقَّة العربي في الجاهلية في اختيار اللَّون المناسب في الموضع المناسب بحسب الرمزيَّة التي يحملها فكره وترتبط بها نفسيته ومعتقداته . من هنا يصبح من المهم التركيز على الألوان الأساسيَّة التي تتدرج منها بقية الألوان ، واختيار جملة الألوان التي استخدمها الشعراء الجاهليون في صَبْغ وتلوين لوحاتهم الشِّعريَّة المختلفة وهي الأسود والأبيض ويلحق به لون الغبار ولون الرَّماد ، ثم اللَّون الأحمر والأخضر والأصفر والأزرق .

ولمعرفة رمزية الألوان وعلاقتها بالدِّين والأسطورة فإنَّه لابد من دراستها من خلال قضايا ذات علاقة وثيقة بمغزاها في الفكر العَقَدي عند عرب الجاهلية؛ كتشبيه الشَّاعر الجاهلي المرأة بالدُّمية ، وتشبيهها بالظبية والغزال ، وتشبيهها بالمصباح والضوء والنَّجم والقمر ، وتشبيهها بالبيضة ، والخلوص من ذلك إلى الوشائج الدينية والأسطوريَّة للألوان عند أولئك القوم .

أمَّا بالنسبة لعلاقة التصوير اللَّوني في الشِّعر الجاهلي بالحالة النَّفسية للشَّاعر؛ فإنَّه من الضروري دراسة ما تعارف عليه الجاهليون من دلالات لبعض الألوان، ومحاولة الكشف أكثر عن ارتباط بعض الألوان ببعض الدلالات كالأسود الَّذي ارْتَبَطَ عندهم بالظلام؛ فخافوا منه، وعقدوا بينه وبين العوالم المجهولة علاقة؛" فقد ورَدَ عندهم أنَّ الكلب الأسود والقطّ الأسود من الصُّور التي يتشكَّل بها الجن، أو هما واسطة بين عالم الجنّ وعالم الإنس، وأكثر مطايا الجنّ سوداء، سواء في ذلك الكلب، أو القطّ أو النَّعام ونحوها "[1]، وربط الجاهليون بين الأسْوَد والقبر والموت باعتبارهما من صُور الظلام عندهم؛ لذلك تشاءموا من الغراب لِلَوْنِه الأسْود ؛ فهو عندهم نذيرٌ للشؤمِ والخراب والفرقة ، " أمَّا غُراب البين نفسه فإنَّهُ غراب صغير ، وإنَّما قيل لكلِّ غُرابٍ

[1] – د/ محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عند الجاهلية ودلالاتها ، دار الفارابي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م ، ٢/ ٢٥ .

غراب الْبَيْن ؛ لسقوطها فِي مواضع منازلهم إذا بانُوا عنها "[1]، واستَعَاروا فِي كلامهم الأسْوَدَ لليوم الَّذي يتوقعون فيه الشَّرَّ؛ فقالوا : " يَومٌ أسْوَد " [2]،
ووصَفَت العربُ فِي الجاهليَّة الأعداءَ بأنَّهُم " سُودُ الأكباد؛ لأنَّ الحقدَ قد أحرق أكبادَهُم حتَّى اسْوَدَّتْ "[3]

وأمَّا من صور ارتباط الأسْود عند الجاهليين بالجوانب المشرقة؛ فإنَّ من ذلك استخدام اللَّون الأسْود فِي صناعة ما يُحَرِّزُون به صبيانَهُم من الشُّرور؛ " فكانُوا يضعون خرزةً سوداء فِي عُنق الصَّبي تُسمَّى الكحلة لحمايته من العين "[4]، وربَّما كان استخدام الكحل بكثرة فِي الجاهلية دالًا على هذا المعنى .

وارْتَبَطَ الأسْوَدُ عند الجاهليين بالسَّيِّد والسِّيادة؛ " فقالوا : إنَّما سُمِّي سيِّدًا؛ لأنَّ النَّاس يلتجئون إلى سوَاده ، ... ويُقال : فلانٌ أسْوَد من فلان؛ أي أعلى سِيَادةً منه "[5]

أمَّا اللَّون الأبيض فإنَّه رمز النَّقاء والطَّهارة والأمل والنُّور الإلهي والحياة والتَّفاؤل؛ كما بيَّنْتُ ذلك فِي بداية هذا البحث، و" يُمثِّل الأبيض فِي الموروث الجاهلي الجمال والنَّقاوة والسَّلام"[6]، وما ذمَّ الجاهليون هذا اللَّون إلا فِي حالة الشَّيب – فِي الغالب – ولو رجعْنَا إلى تأويلات ابن سيرين لهذا اللَّون فِي المنام؛ لوجدْنَا دِلالات الخير والطَّهارة ؛ فالْفَرَس الشَّهباء فِي المنام تعني المرأة المتدينة ، والبغلة الشَّهباء تعني امرأة جميلة [7]، ورؤية الأبيض من الثِّياب فِي المنام تدل على الخير والصَّلاح فِي الدِّين والدنيا[8] ،

---

[1] – الجاحظ ، كتاب الحيوان ، وضع حواشيه محمد باسل عيون ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٩هـ ، ٢/ ٢٠٥ .

[2] – الثَّعالبي ، فقه اللغة وسر العربيَّة ، شرح د/ ياسين الأيوبي ، المكتبة العصريَّة ، بيروت ، ١٤٣٢هـ ، ص ١٢٨ .

[3] – د / جواد علي،المفصَّل فِي تاريخ العرب قبل الإسلام،بيروت، دار العلم للملايين،الطَّبعة الثَّانية، ١٩٧٨م ٥/ ٣٢٤ .

[4] – د / جواد علي ، المفصَّل فِي تاريخ العرب قبل الإسلام، ، ٥/ ٣٥٢ .

[5] – ابنُ فارس ، معجم المقاييس فِي اللغة ، تحقيق شهاب الدِّين أبو عمرو ، دار الفكر ، بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ، (سود) .

[6] – محمد حافظ ذياب ، جماليات اللَّون فِي القصيدة العربيَّة ، مجلة فصول ، العدد الثَّاني ، ١٩٨٥م ، ص ٤٢ .

[7] – ابن سيرين ، تفسير الأحلام الكبير ، دار الفكر ، بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٩٦م ، ص ١٤٨ .

[8] – المصدر نفسه ، ص ١١٥ .

وشيب اللِّحْية فِي المنام يعني الوقار والهيبة[١] ، والعنب الأبيض فِي المنام خيرٌ يحصل للرائي فِي الدُّنيا[٢].

أمَّا قداسة اللَّون الأبيض فإنَّها تَتَجَلَّى – عند الجاهليين – فِي النُّور الإلهي ، وفي معبوداتهم البيضاء ؛ على نحو عبادتهم للقمر والزهرة – كما سبق – وعبادتهم للشَّاة البيضاء؛ فـــ " العرب كانوا يأتون بالشَّاة البيضاء فيعبدونها، فيجيء الذِّئبُ فيأخذها فيأخذون أخرى مكانها "[٣]، وكانت (اللات) عبارة عن صخرة بيضاء[٤] ، وذكر ابنُ السَّائب الكلبي أنَّ ذا الخلصة كان " مروة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج"[٥].

وأمَّا لون الغبار فإنَّه لون يلحق بالأبيض ،" والأغبر : كلُّ لون له لون غبار"[٦] ، وقد ارتبط هذا اللَّون – عند الجاهليين – بالحزن والكآبة ؛ ومبعثهما من إهالة التراب على الرؤوس عند الوفاة ، ومن " الْمَحَاوِيْج الفقراء، وذلك أنَّهم مُغْبَرَّةٌ ألوانُهُم ، وهم أهل الْمَتْرَبَة "[٧]، ومن التَّشاؤم الَّذي كان عند أولئك العرب من اعتقادهم أنَّ " الغبار لا يثور إلا لمقتل زعيم من الجنّ"[٨]، وأنَّ مقتل هذا الزَّعيم سيجلب لهم الفساد والشَّر والموت من الجنّ الَّذين يحرصون على الثأر والانتقام لمقتله .

أمَّا اللَّون الأحمر فقد تنوَّعَتْ دلالاته فِي المجتمع الجاهلي؛ فهو لونٌ يدلُّ عندهم على الحياة ؛ " ولذا فقد اعتقدَ الجاهلي أنَّ النَّفْسَ هي الدَّم لا غير ، وسُمِّيَت المرأة نُفَسَاء لما يخرج منها من الدم "[٩]، كما ارتبط الأحمر عندهم بالمعارك والقتل والعهود التي كانت بينهم ؛ والتي كان من أساسياتها أنْ تُغمس الأيدي فِي الدماء إبرامًا للعهد

---

[١] – نفسه ، ص ٧٤ .

[٢] – نفسه ، ص ٢٥ .

[٣] – الدُّميري ، حياة الحيوان الكبرى ، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصريَّة، بيروت، ١٤٢٦هـــ ، ٣ / ٥٧ .

[٤] – د / جواد علي ، المفصَّل فِي تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٦ / ٢٢٨ .

[٥] – ابن السَّائب الكلبي ، كتاب الأصنام ، تحقيق د/ محمد عبد القادر أحمد وأحمد محمد عبد القادر ، مكتبة النَّهضة المصريَّة ، القاهرة ، بدون رقم طبعة ، ١٩٩٣م ، ص ٤٩– ٥٠ .

[٦] – ابن فارس ، معجم المقاييس فِي اللغة ، (غبر) .

[٧] – المصدر نفسه ، (غبر) .

[٨] – الأزرقي ، أخبار مكة ، تحقيق رشدي الصَّالح ، دار الأندلس ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٨٣م ، ٢ / ٦١ .

[٩] – د / إبراهيم الفيومي ، الفكر الديني الجاهلي ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٩م ، ص ٢٤٠ .

على المناصرة فِي القتال[١] ، كما ارتبط اللَّون الأحمر – عند الجاهليين – بالنَّار ؛ وذلك من قبيل القداسة التي كانوا يمنحونها للنَّار فِي معتقداتهم الوثنيَّة ؛ باعتبار دلالتها على حمرة الشَّمس معبودة العرب قديمًا من جهة ، وباعتبارها مستودع القوَّة السحريَّة عندهم من جهة ثانية ، وربَّما كانت عبادتهم للأصنام بسبب اعتقادهم أنَّ النَّار لا تقدر على إحراقها ، وربَّما أقسموا بالنَّار، ولا يكون ذلك إلا لاعتقادهم بقداستها؛ وفِي ذلك ذكر الجاحظ بيتًا لم ينسبْهُ لأحد من الشُّعراء ، وهو قول الأول[٢] :

حَلَفْتُ لَهُمْ بِالْمِلْحِ وَالْجَمْعُ شُهَّدٌ وَبِالْنَّارِ وَالِلاتِ الَّتَيْنِ أُعَظِّمُ

والحقيقة أنَّ اللَّون الأحمر كان – فِي الغالب – لونَ شُؤمٍ عند الجاهليين ؛ فقد كانت العربُ تقول فِي الموت : " موتٌ أحْمر ، وذلك إذا وُصِفَ بالشِّدَّة ، وقال عليٌّ : كنا إذا احْمَرَّ البأسُ اتَّقَيْنَا برسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – ويقال : سنة حمراء : شديدة ، ولذلك يُقال لِشدَّة القيظ : حَمَارَّة ؛ وإنَّما قيل هذا ؛ لأنَّ أعجب الألوان عندهم الحمرة ، ...فأمَّا قولهم للذي لا سلاح معه : أحمر ، فممكن أن يكون ذلك تشبيهًا له بالعَجَم ، وليست فيهم شجاعة مذكورة كشجاعة العرب "[٣]، واللَّون الأحمر " رمزٌ لجهنَّم فِي كثيرٍ من الدِّيانات؛ حيثُ تُوصَفُ جهنَّم بأنَّها حمراء "[٤].

أمَّا اللَّون الأخضر فإنَّهُ لونٌ تفاءل به الإنسان فِي الجاهلية ؛ لاسيما أنَّهُ كان يعيش فِي بيئة صحراويَّة شحيحة الخضرة ، وهذا الجدْبُ جَعَلَهُ يتطلَّع إلى الخصب والنَّبات؛ باحثًا عن النَّعيم والسُّرور والغِنَى والعيش الرغيد .

وفِي لوحة الأطلال أبرزَ الفكرُ الجاهلي الوشمَ كتصويرٍ مقدَّس يستدعي الحياة من تحت ركام الموت والدَّمار؛ فهذا زهيرٌ يقول فِي مُعَلَّقته[٥] :

دِيَارٌ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا مَرَاجِعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ[٦]

---

[١] – انظر د/ جواد علي ، المفصَّل فِي تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٥ / ٧٣– ٧٤ .

[٢] – الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السَّلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ٣ / ٨ .

[٣] – ابن فارس ، معجم المقاييس فِي اللُّغة ، (حمر) .

[٤] – د/ أحمد مختار عمر ، اللُّغة واللَّون ، ص ١٦٤ .

[٥] – زهير بن أبي سُلمى ، الديوان ، صَنْعَةُ أبي العبَّاس ثعلب ، وضع هوامشه وفهارسه د/ حنَّا نَصر الحتِّي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٦هـ ، ص ٣٤ .

[٦] – الرَّقمتَان : إحداهما قُرب المدينة ، والأخرى قُرب البصرة . الوَشَم : نقْشٌ بالإبرة يُحشَى بالإثمد لِيَخْضَرّ . مراجِع الوشْم : تكراره وترداده . النَّواشر : عَصَبُ الذِّراع ، واحدُهُ ناشِرة . المعْصَم : موضع السِّوار .

فمراجِعُ الوشم أشبه ما تكون بصورة مُصغَّرة للطَّعن بين عبس وذبيان فِي أرض المعركة .. لكن التَّفاؤل بانتهاء معاناة هذه الحرب سيأذن بحياة جديدة تنبعث من كل مكان ، لذلك جاء زهيرٌ بهذا المعنى فِي البيت التالي لهذا البيت فقال[1] :

بِهَا الْعِيْنُ، وَالآرَامُ يَمْشِيْنَ خِلْفَةً وَأَطْلاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ[2]

ونأتي إلى اللَّون الأصفر الَّذي اقترن عند الجاهليين بالشَّمس؛ لما لها من قداسة عندهم ، وبالطِّيْب والذَّهب ؛ فارتداء الأصفر دليلٌ على الْمُلْك والسِّيادة ، وسُمِّي الزبرقان بن بدر بهذا الاسم " لأنَّهُ كان ينضح عمامتَهُ بالزعفران، وكانت سادة العرب تفعل ذلك"[3]، وكما سبق فِي مستهل هذا البحث قول الأعشى [4]:

بَيْضَاءُ ضَحْوَتُهَا ، وَصَفْ.....رَاءُ الْعَشِيَّةِ كَالْعَرَارَه

ومعنى صفراء العشيَّة : أي أنَّها تختضبُ بالزعفران والطِّيْب .

والأصفر – عند الجاهليين – دليل على المرض والذُّبول ، وعبارة " اصْفِرار الأنامل " تردَّدَتْ كثيرًا فِي أشعارهم دالَّةً على الموت أو دُنو الأجل؛ ومن ذلك قول زهير[5] :

فَيَبْدَؤُهُ بِضَرْبَةٍ ، أَو يَشُكُّهُ بِنَافِذَةٍ؛ تَصْفَرُّ مِنْهَا الأَنَامِلُ [6]

وقال لبيد[7] :

وَكُلُّ أُنَاسٍ سَوفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُوَيْهِيَةٌ؛ تَصْفَرُّ مِنْهَا الأَنَامِلُ

ودلالة اللَّون الأصفر – على الأجل ودُنوِّه – شائعة على مرّ العصور كثيرًا ، وهي دلالة مستمرة حتى وقتنا الحاضر .

---

[1] – المصدر السَّابق ، نفس الصَّفحة .

[2] – الْعِيْن : البقر؛ الواحدة عَيْنَاء ، والذَّكَرُ أعْيَن . الآرام : الظِّبَاءُ الْبِيْضُ الخوالص البياض . الأطْلاء : أولاد البقرة أو الظَّبية ؛ واحدها طلًا .

[3] – د/ أحمد إسماعيل النّعيمي ، الأسطورة فِي الشِّعْر العربي قبل الإسلام ، دار سيناء للطباعة والنَّشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥م ، ص ١١٩ .

[4] – الأعشى ، الديوان ، تحقيق كامل سليمان ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ص ٧٧ .

[5] – زهير بن أبي سُلمى ، الديوان ، ص ٢١٦ .

[6] – دُويهية : داهية ، وصُغِّرَتْ للتَّعظيم .

[7] – لبيد بن ربيعة ، الديوان ، شرح الطُّوسي ، وضع هوامشه وفهارسه د/ حَنا نَصر الْحَتِّي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٤هـ ، ص ١٤٥ .

والأصفر لونٌ تشاءم منه العربُ في كثير من أحوالهم ، ومن ذلك تشاؤمهم من الروم لاصفرار وجوههم؛ فسموهم بني الأصفر؛ وفي ذلك قال أبو تمَّام بعد انتصار المسلمين على الروم في معركة " عمّوريَّة "[1] :

أَبْقَتْ بَنِي الأصفَرِ الْمُصْفَرِّ كَاسْمِهِمِ صُفْرَ الوجوهِ ، وجَلَّتْ أوجُهُ العربِ

فهناك ربطٌ عند العرب بين الهزيمة واللَّون الأصفر نتج عن الموقف العدائي مع الروم ، وما أفرزه من ذلّ لبني الأصفر وعار وهزيمة لحقت بهم .

وتُختم دراسة الألوان ودلالتها عند الشَّاعر الجاهلي بذكر اللَّون الأزرق المكروه كثيرًا عند العرب؛ " فاقتصرَ الأزرق على لون عيون أعدائهم ولون الذّباب، وعيون الجوارح من الطَّير والحيات وبعض الهوام"[2]، " وقد تشاءم العرب من البسوس وهي زرقاء العينَيْن ، والزَّبَّاء وهي ملكة تدمر ، وزرقاء اليمامة لهذه الصِّفة ، كما تشاءموا من كلِّ أزرق العَيْنَين "[3]؛ فوصفوا كلَّ عدو بالزُّرقة فقالوا : " عدوٌّ أزرق، نسبة إلى زُرقة عين الروم، وتشبيهًا بهم "[4]

[1] – أبو تمَّام، الديوان ، ضبطه وشرحه شاهين عطية ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ، ص ٢١.

[2] – د. محمد عجينة ، موسوعة أساطير العرب ، ٢/ ٢٠١ .

[3] – الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥/٣٠٠ .

[4] – الثَّعالبي ، فقه اللغة وسر العربية ، ص ١٠٧ .

الفصل الأول

علاقة التَّصوير اللَّوني فِي الشِّعر الجاهلي بالدِّين والأسطورة

سوف أتناول هذه العلاقة فِيما يختص بجانب المرأة فقط ؛ خشية الإطالة فأقول : لقد اقترنتْ المرأة في الشِّعْر الجاهلي كثيرًا باللَّون الأبيض ، واجتهد بعضُ الباحثين فأرجَعَ ذلك إلى بياض الزهرة ، وبياض الشمس ، وبياض الدُّمَى ... وهي الرموز التي عبدها العربُ قديمًا ، ونَسَجُوا حولها الأساطير ، " والدُّمَى والتَّماثيل تصاوير لربَّات قد عبدها الجاهليون .. أيَقْدِرُ الوثَنِيُّ على تشبيه المرأة بما يَعْبُدُ إنْ لم يكن للمرأة الموجودة فِي الشِّعْر الجاهلي شيء من القَدَاسة ؟ "[1]،فهناك عقيدةٌ قديمة رأى فيها الإنسان البدائي ما اختصَّت به المرأة من سرِّ التَّناسل دون أن يكون للرجل دور فيه ، وهذه العقيدة ظَهَرَتْ فِي الفترة الطّوطميَّة إبان الحياة البدائية للإنسان؛ فالخصوبة سرٌّ من أسرار المرأة كما هو سرٌّ من أسرار الأرض الزراعيَّة ؛ من أجل ذلك ظَهَرَتْ فِي الدِّيانات القديمة الآلهة الأمهات، والآلهة المرأة، وأنَّ معنى الأمومة هو المعبود ، " وفكرة العذراء أم الإله فكرة صَاحَبَت الذِّهْن الإنساني وسيطرت عليه أمدًا بعيدًا "[2]، ومن هنا نعلم سرَّ تلك التَّماثيل التي كانت تُصنع للمرأة من الحجر الجيري، و " تمدُّنا حفريات العصر الحجري بالتَّصوُّر الديني لأهله؛ ففي عديد من المدن وُجدت تماثيل من الحجر أو العظام لنساء يلفت النَّظَرُ إليها شيئان : أنَّ الأعضاء الأنثويَّة قد بُولغ فِي تضخيمها ، وأنَّ الوجه لا يحملُ أيَّ ملامح ، وتُسمَّى هذه التَّماثيل (فينوسات لوسيبل)، وهي صغيرة ، صالحة للنقل ."[3]، أمَّا العرب فإنَّ بيئتهم الصَّحراويَّة المشمسة الشَّحيحة من الزِّراعة قد جعلتهم ينظرون إلى الشَّمس نظرةً أخرى باعتبارها الرَّبَّة والإلهة الأم ، وجمعوا فيها صورًا مختلفة للأمومة كالغزالة والمهاة والنَّاقة والفَرَس والنَّخلة والسمرة ، والمرأة ، وهذا ما يُفسِّرُ لنا ذِكْر بعض شعراء الجاهليَّة لبعض الطقوس الدينيَّة

---

[1] – د / نصرت عبد الرحمن، الصُّورة الفنيَّة فِي الشعر الجاهلي فِي ضوء النَّقد الحديث، مكتبة الأقصى، عَمَّان، الطَّبعة الثَّانية، ١٩٨٢هـ ، ص ١١١ .

[2] – علي البطل ، الصُّورة فِي الشِّعْر العربي حتَّى آخر القرن الثَّالث الهجري، دراسة فِي أصولها وتطورها، دار الأندلس ، بيروت ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٩٨٣م ، ص ٥٦ .

[3] – نورمان بريل، بزوغ العقل البشري، ترجمة إسماعيل حقي ، مكتبة نهضة مصر ومؤسسة فرانكلين ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ص ١٣ ، ١٤ .

المتعلقة بالمرأة فِي شكل صور عابرة غير مكتملة التَّفاصيل ؛ ومَرَدُّ ذلك لبعد المسافة بين هؤلاء الشُّعراء وبين تلك العقائد القديمة والأساطير الموغلة فِي الزَّمن؛ فأولئك الشُّعراء ضَمَّنوا قصائدهم رواسب وآثارًا باهتة من تلك العقائد أو الأساطير باعتبارها قوالب وتقاليد فنيَّة أكثر من كونها عادات وشعائر يمارسونها بشكل يومي ؛ فهذا امرؤ القيس يصفُ حبيبته بقوله[1]:

بَـرَهْـرَهَـةٌ كَالشَّمْسِ فِـي يَومِ صَحْوِهَـا تُضِيءُ ظَلامَ الْبَيْـتِ فِـي لَيْلَةِ الـدُّجَى[2]

حيث جمع امتلاء الأعضاء الأنثويَّة وامتلاء الْفَخِذَيْن فِي كلمة : (بَرَهْرَهَة)، وما تحمله من معنى الارتجاج والامتلاء ، وأكمل الصُّورة بتشبيه محبوبته بالمعبودة الأم ؛ وهي الشَّمس التي تُبَدِّد الظلام مهما اشْتَدَّ سوادُهُ واحْلولَك؛ فالشَّمسُ هنا تُعطي لون البياض والإشراق ، وهو اللَّون الذي أنا بصدد التأكيد على دِلالته الدِّينيَّة والأسطوريَّة فِي جانب المرأة فِي هذا الجزء من البحث ، وأشدُّ وضوحًا من ذلك ذِكْرُ امرئ القيس – أيضًا – لِلَّون الأبيض فِي قوله[3]:

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضَاءُ غَيْـرُ مُـفَاضَـةٍ تَـرَائِـبُهَا مَـصْقُولَةٌ كَـالـسَّـجَنْـجَـلِ [4]

كَبِكْرِ مُـقَانَـاةِ الْبَيَاضِ بِصُفْـرَةٍ غَـذَاهَـا نَـمِيْـرُ الْـمَاءِ غَيْرُ الْـمُـحَلَّلِ [5]

فَالْبِكْرُ" المرأة التي ولدت بطْنًا واحدًا، والبِكْرُ: العذراء ..والْبِكْرُ : النَّاقة التي ولدت بطنًا واحدًا"[6]، والْبِكْرُ:" البيضة الأولى من بيض النعام، وخصَّها ؛لأنَّ الأولى لا يخلص بياضها خلوص سائرها ، وهي أيضًا الدُّرَّة التي لم تُثْقَبْ؛ يُريد أنَّ المرأة بيضاء يخالط بياضَها صُفْرة، وكذلك لون الدُّرّ ."[7]، وهذه المعاني لِلْبِكْرِ لابد من استحضارها ذهنيًّا

---

[1] – امرؤ القيس ، الديوان ، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، الطَّبعة الخامسة ، ص ٣٣١ .

[2] – البرهْرَهَة : المترجرجة النَّاعمة الجسم اللَّيِّنَة . الدُّجَى : الظُّلمَة .

[3] – المصدر السَّابق ، ص ١٥ ، ١٦ .

[4] – المهفهفة : الخفيفة اللحم . المُفاضة : الضَّخمة البطن ، أي هي خميصة البطن ضامرته . التَّرائب : جمع تريبة ؛ وهي موضع القلادة من الصَّدر . السَّجنْجل : المرآة ؛ بالروميَّة .

[5] – النَّمير : الماء العذب النَّاجع فِي البدن . غير المحلل : الَّذي لم يُنْزَل عليه فيكدَّر .

[6] – ابن منظور، لسان العرب، تحقيق ياسر سليمان أبو شادي، ومجدي فتحي السَّيِّد ، دار التَّوفيقيَّة ، القاهرة ، (بكر).

[7] – امرؤ القيس ، الديوان ، ص١٦ .

عندما نريد معرفة رمزيَّة صورة المرأة هنا، وما تدلُّ عليه من جذور عبادات دينيَّة قديمة .

أمَّا البياض والصَّفار فإنَّهما يستدعيان مزج المرأة بالشَّمس ؛والشَّمسُ المعبود المقدَّس في العقيدة الدينيَّة القديمة، وكذلك فعَل الأعشى عندما استدعى صورة المعبودة الشَّمس حين ذَكَرَ اللَّونَيْن الأبيض والأصفر في تصويره لمحبوبته في قوله[1] :

بَـيْـضَـاءُ ضَـحْـوَتُـهَـا ، وَصَـفْـ.....رَاءُ الْـعَـشِـيَّـةِ كَـالْـعَـرَارَه[2]

فهي بيضاءُ بالضُّحى وصفراءُ بالعشيَّة ، وهذه هي الشَّمس ذاتها .

وفي سياق تركيز الشَّاعر الجاهلي على اللَّون الأبيض في قصائده، وما لذلك من علاقة بالعقائد الدِّينيَّة القديمة أو الأساطير – كما أسْلَفْتُ – فإنَّهُ ألَحَّ كثيرًا على هذا اللَّون من خلال تشبيه المرأة بالشَّمس – كما سبق – أو تشبيهها بالدُّمية أو بالغزال أو الظبي ، أو بالضوء والقمر والنَّجم ... وكثيرًا ما شبَّهها بالبيضة .. وكلُّ ذلك سأتناوله بصورة مختصرة فيما سيأتي ..

المبحث الأول : تشبيه المرأة بالدُّمية :

وفي ذلك قال الأعشى[3] :

وَقَـدْ أَرَاهَـا وَسْـطَ أَتْـرَابِـهَـا ، فِي الْـحَـيِّ ذِي الْـبَـهْـجَةِ والـسَّامِرِ

كَـدُمْـيَـةٍ صُـوِّرَ مِـحْـرَابُـهَـا بِـمُـذْهَـبٍ فِـي مَـرْمَـرٍ مَـائِـرِ[4]

الأعشى صَوَّر محبوبتَهُ بالدُّمية التي يجتمع حولها المتعبدون ، وهي دُمية صُنِعَتْ من الذَّهب والمرمر وفي هذا التَّشبيه ما يُؤكدُ شرف هذه المحبوبة وصفائها، في إشارة من الأعشى إلى ما ترمزُ إليه الدُّمية من معطيات القداسة والبياض .. ومعلومٌ أنَّ اللَّون الأبيض " ثاني الألوان دورانًا ، وتكادُ الحضاراتُ تُجْمِعُ على دلالة هذا اللَّون ؛ فهو

---

[1] – الأعشى ، الديوان ، ص ٧٧ .

[2] – صفراء العشيَّة : أي أنَّها تختضبُ بالزعفران والطِّيْب . العرارة : نبتٌ له نَوْر أصفر .

[3] – المصدر السَّابق ، ص ٩٢ .

[4] – محرابها : أراد غرفتها . مائر : متموج .

رمز النَّقاء والطَّهارة والنَّظافة "[1]، " وهو لون الأمل والتَّفاؤل والحياة ، مقابل الأسود رمز التَّشاؤم والموت والدَّمار ."[2]

أمَّا عنترة بن شدَّاد فإنَّه رسم لوحةً رائعةً للمرأة عندما صوَّرها كأنَّها دمية؛ فِي إشارة إلى عفَّتها وتَمَنُّعِهَا ؛ فقال[3] :

لِـمَنِ الـشُّـمُوسُ عَـزِيْـزَةَ الأَحْدَاجِ يَـطْلُعْـنَ بَـيْـنَ الْـوَشْـي وَالدِّيْـبَاجِ[4]
مِـنْ كُلِّ فَائِـقَةِ الْـجَـمَالِ كَـدُمْيَـةٍ مِـنْ لُـؤْلُـؤٍ قَـدْ صُـوِّرَتْ فِـي عَـاجِ
فِـيْـهِنَّ هَـيْـفَاءُ الْـقَوَامِ ،كَـأَنَّهَـا فُـلْـكٌ مُـشَـرَّعَـةٌ عَـلَـى الأَمْـوَاجِ
أَبْـصَرْتُ ثُمَّ هَـوِيْـتُ ثُـمَّ كَـتَمْتُ مَا أَلْـقَـى ، وَلَـمْ يَـعْـلَـمْ بِـذَاكَ مُـنَـاجِـي
فَـوَصَلْـتُ ثُـمَّ قَدَرْتُ ثُمَّ عَـفَفْتُ مِـنْ شَـرَفٍ تَـنَـاهَـى بِـي إِلَـى الإِنْـضَـاجِ

فالنِّساء كريمات الأصل عند عنترة بن شدَّاد، وهُنَّ جميلات متمنِّعات ، وكأنَّ الواحدة منهنَّ دُمْيَةٌ شُيِّدَتْ من اللؤلؤ والعاج، وهؤلاء النِّسوة يُحِطْنَ بحبيبته، وقد رحَلْنَ جميعهنَّ تُحيط بهنَّ الحراسات المشدَّدة " عَـزِيْـزَةَ الأَحْدَاجِ" ، لكنَّه على الرغم من ذلك استطاع الوصول إلى حبيبته السَّاحرة الجمال، وتمتَّع برؤيتها، لكنَّ شَرَفَهُ منعه من أن يقضيَ منها وطرًا .. وقد استدعى عنترةُ رموزًا أسطوريَّة عندما جعل من حبيبته امرأةً بيضاء اللَّون جميلة متناسقة القوام؛ كتناسق الدُّمية التي شُيِّدَت بعناية فائقة ، وهذه المرأة مسافرة فِي كامل حُلِيِّها وزينتها ، وهذا الرَّحيلُ يُذكرنا برحيل عشتار أو نزولها إلى العالم الأسفل[5].

---

[1] – عبد الفتاح رياض، التَّكوين فِي الفنون التَّشكيليَّة ،دار النَّهضة العربية، القاهرة ، الطَّبعة الثَّانية، ١٩٨٣م، ص ٢٦٠.

[2] – د / يوسف حسن نوفل ، الصُّورة الشِّعريَّة والرمز اللَّوني ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، ص ١١٩ .

[3] – عنترة بن شدَّاد ، الديوان ، شرح الخطيب التَّبريزي ، تحقيق مجيد طرَاد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤١٨هـ ، ص ٤٣ .

[4] – الأحداج : جمع الْحِدْج ، وهو مركب النِّساء كالهودج . عزيزة الأحداج : كريمة مُمَنَّعة . الدِّيباج : الحرير.

[5] – فراس السواح ، لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة ، دار علاء الدين ، دمشق ، الطَّبعة الثَّامنة ، ٢٠٠٢م ، ص ٦٧ – ٦٩ .

المبحث الثَّاني : تشبيه المرأة بالظَّبية والغزال :

الغزالة من أسماء الشَّمس عند العرب ؛ جاء في لسان العرب : " الْغَزالةُ : الشَّمس ، وقيل: هي الشَّمسُ عند طلوعها، يُقال : طَلَعَت الغزالةُ ، ولا يُقال: غابت الغزالة .."[1]، فإذا شبَّه الشَّاعرُ الجاهلي المرأةَ بالغزالة فهو من قبيل تشبيهها بالشَّمس ، وقد شبَّه امرؤ القيس النِّساءَ بغزلان الرَّمل، وفي ذلك قال[2]:

وَمَــاذَا عَــلَــيْهِ أَنْ ذَكَرْتَ أَوَانِــسًا كَــغِــزْلانِ رَمْــلٍ فِــي مَــحَــارِيْــبِ أَقْــيَــالِ[3]

إنَّهُنَّ نساء كالغزلان الخاصَّة التي يربيها الملوك ويعتنون بها ، وهذا الأمر يزيد من مكانتها وقداستها .. ولأنَّ الظَّبية في الشِّعْر الجاهلي قد ارْتَبَطَتْ برمزيَّة المرأة المثال في صورة الْحُسْن الأنثوي – من نعومة وجمال وبياض – فقد شبَّه الشَّاعرُ الجاهلي المرأة بالظَّبية والغزالة؛ فهذا عبيد بن الأبرص قال[4] :

وَظِــبَــاءً كَــأَنَّــهُــنَّ أَبَــارِيْــ.....قُ لُــجَــيْــنٍ تَــحْــنُــو عَــلَى الأَطْــفَــالِ[5]

وَلَــقَد أَدْخُلُ الْــخِــبَاءَ عَلَى مَهْــ.....ــضُــومَــةِ الْــكَشْحِ طَــفْــلَــةٍ كَــالْــغَــزَالِ[6]

إنَّ عبيد بن الأبرص لم يذكر الأمومة وما تدل عليه من الْخِصْب في الظَّبية على أنَّها صفاتٌ جماليَّة في المرأة فحسب؛ بل جاء ذِكْرُهُ كمعادل موضوعي للمرأة الأم؛ فالطَّابع الدِّلالي الجمالي في"طَــفْــلَةٍ كَالْــغَــزَالِ" و" تَحْنُو عَلَى الأَطْفَالِ " فيه رمزيَّة الأم والحبيبة المنشودة؛ لأنَّ الظَّبية مرتبطة ببعض الرُّموز العشتاريَّة المقدَّسة في جانب الأمومة والخصوبة ، " وقد أسبغَ شُعراء الجاهليَّة على الظِّباء كثيرًا من صُور الْحُسنِ والرِّقَّة : الْحُسْنُ في عيونها الكحيلات ، وأجيادها التُّلع ، وأفواهها الْحُو، وترائبها الْمُتربّبة ، وخدودها الأسيلة، ..."[7]، ومن ذلك قول قيس بن الخطيم[8]:

---

[1] – ابن منظور ، لسان العرب ، (غزل) .

[2] – امرؤ القيس ، الديوان ، ص ٣٤ .

[3] – المحاريب : الغُرَف . الأقيال : الملوك؛ وهُم يتَّخذون الغزلان ويربونها .

[4] – عبيد بن الأبرص ، الديوان ، شرح أحمد عدرة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٤هـ ، ص ٩٥ ، ٩٨ .

[5] – اللُّجين : الفضَّة .

[6] – الخباء : الْخِدْر . المهضومة : اللَّطيفة الضَّامرة . الكشح : الخصْر . الطَّفْلَة : النَّاعمة .

[7] – د / نصرت عبد الرحمن، الصُّورة الفنيَّة في الشعر الجاهلي في ضوء النَّقد الحديث، ص ٨٧ .

[8] – قيس بن الخطيم ، الديوان ، تحقيق د/ ناصر الدِّين الأسد ، دار صادر ، بيروت ، ص ١٢٤ .

تَرَاءَتْ لَـنَا يَومَ الرَّحِـيْلِ بِمُقْـلَـتَيْ غَرِيْـرٍ بِـمُلْتَفٍّ مِـنَ الـسِّـدْرِ مُـغْـرَدِ[1]

وعلاقة الظَّبية باللَّون الأبيض يرجع بالصُّورة إلى أنَّ الظَّبيةَ ترمز إلى الشَّمس في العقيدة الدِّينيَّة القديمة ، والشَّمسُ رمز للصَّفاء والبياض، والرَّبطُ بين الظَّبية والمرأة ربط طبيعي؛ لأنَّهما رمزان للأمومة التي تعود إلى الشَّمس الأم المعبودة قديمًا .

المبحث الثَّالث : تشبيه المرأة بالمصباح والضوء والنور والنَّجم والقمر :

من خلال تشبيه المرأة بالمصباح والضوء والنور والنَّجم والقمر عند الشَّاعر الجاهلي؛ يتراءى لنا اللَّون الأبيض من خلال صفاء هذه الأشياء وتوهُّجِها ، وما تختزله من عقائد دينيَّة هي جزء من حياة العربي قديمًا؛ فالقمرُ من معبوداته كالشَّمس، وأمَّا المصباح والنُّور والضَّوء والإشراق فإنَّها صفاتٌ تابعةٌ للشَّمس ذات النُّور السَّاطع والتَّوهُّج الشَّديد، وبالتَّالي فإنَّها صفاتٌ مُقدَّسة؛ لأنَّها تَنْبَعِثُ من المعبود المقدَّس الأكبر الشَّمس، وتعكس المكانة الخاصَّة للمرأة ..

قال النَّابغةُ الذُّبياني[2]:

أَقُولُ والـنَّجْمُ قَـدْ مَـالَـتْ أَوَاخِـرُهُ إِلَى الْـمَغِـيْـبِ : تَـثَـبَّـتْ نَـظْـرَةً حَارِ[3]

أَلَمْحَـةٌ مِنْ سَـنَا بَـرْقٍ رَأَى بَـصَرِي أَمْ وَجْهُ نُـعْـمٍ بَـدَا لِـي أَمْ سَـنَـا نَـارِ؟[4]

بَـلْ وَجْـهُ نُعْمٍ بَـدَا وَاللَّـيْلُ مُـعْـتكرٌ فَـلاحَ مِـنْ بَـيْـن أَثْـوَابٍ وَأَسْـتَـارِ

شبَّه النَّابغةُ الذُّبياني وجْهَ " نُعْمٍ " بالشَّمس؛ بجامع الصَّفاء والإشراق في كلٍّ، لكنَّه يحتار في هذه الشَّمس التي تظهرُ في اللَّيل !! ويتساءل: هل رأى بَصَرُهُ لمحةً من ضوء البرق ؟ أم رأى سنا نارٍ مُتوهِّجة ؟ أم بدا له وجْهُ " نُعْمٍ " المشرق ؟ وكأنَّه يميلُ إلى أنَّ ما رآهُ هو نور القداسة الَّذي حَظِيَتْ به هذه المرأة ؛ فهو نورٌ مُقدَّس؛ يُبدِّدُ ظلام اللَّيل ، وكأنَّ " نُعْمًا " هنا رمزٌ من رموز الزهرة ذي النُّور المتوهِّج الَّذي لا يُشبهه إلا نور الشَّمس الَّذي لا مثيل له في الكون .. وتنحو الأسطورة بالزّهرة منحى أنَّها امرأةٌ

---

[1] – غَرير : يُريد ظبيًا؛ وأصل الْغِرَّة : قِلَّة التَّجربة .

[2] – النَّابغة الذُّبياني ، الديوان ، شرح وتحقيق سيف الدِّين الكاتب وأحمد عصام الكاتب ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٨٩م ، ص ٣٩ .

[3] – النَّجم : قيل الثُّريَّا . حار : ترخيم حارث .

[4] – السَّنا : الضوء واللَّمعان .

فائقة الْحُسْن والجمال؛ أغْوَتْ الْمَلَكَيْن هاروت وماروت؛ فأصْبَحَتْ رمزًا للجنس والعشق، ومن ثَمّ إلهة الحب والجمال[1].

وأخيرًا، فإنَّ النَّابغة قد مزجَ فِي تصويره اللَّوني فِي أبياته السَّابقة بين اللَّون الأبيض؛ لون الضَّوء والتَّوهج والإشراق المتمثِّل في نور الْقَدَاسة ، وبين لون النُّور المنبعث من الزهرة والَّذي يميل إلى الاحمرار الشَّبيه بلون النَّار ، " والزُّهَرَة، بفتح الهاء : هذا الكوكب الأبيض،... والأزْهَرَان : الشَّمسُ والقمرُ لنورهما ، وأحمر زاهر : شديد الحمرة "[2]

أمَّا عن صورة القمر فِي النُّصوص الشِّعْريَّة الجاهليَّة فإنَّها – أيضًا– لا تنفك عن الارتباط بالرَّواسب الأسطوريَّة أو المعتقدات الدِّينيَّة القديمة؛ لذلك تجاوزَ الشَّاعرُ الجاهلي بالقمر حدوده الطَّبيعيَّة ؛ فعدَّهُ ظاهرة دينيَّة مُقدَّسة ؛ فقد عَبَدَ العربيُّ القمرَ، وقدَّم له القرابين ، ونصوص القرآن الكريم خير شاهد على ذلك، ومنها قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ [الأنعام :٧٧]، وإذا كانت الشَّمسُ رمزًا للمرأة المثال فِي الشِّعْر الجاهلي ؛ فإنَّ القمرَ رمزٌ للرجل المثال، لكنّ اللَّوحةَ القمريَّة فِي الشِّعْر الجاهلي متعددة الجوانب؛ ما بين رمزيَّة القَدَاسَة والتَّعَبُّد ، إلى رمزيَّة الجمال أو المدح أو الفخر .. وتبقى الرَّمزيَّة الطَّاغية من نصيب المرأة والتَّغَزُّل بها، وهنا يبرز التَّصوير اللَّوني صابغًا اللَّوحة الفنيَّة باللَّون الأبيض؛ لون الصَّفاء والجمال، واللَّون الدَّال على بياض المرأة ، واللَّون التَّعَبُّدِي المقدَّس المرتبط بالرُّموز التَّعَبُّديَّة عند العرب قديمًا .. فهذا النَّابغة الجعدي رسم صورةً مُشعَّةً لمحبوبته المثال فِي ليلة حالكة الظلام، وقد جعل نورَهَا مُوازيًا لنور القمر ، وأصبَحَتْ بنورها تدلُّ على الطَّريق وتهدي إليه، فقال[3] :

غَـرَّاءُ كَاللَّـيْـلَةِ الْـمُـبَـارَكَـةِ الْـقَـمْـ.....ـرَاءِ؛ تَـهْـدِي أَوَائِـلَ الـظُّـلَـمِ

---

[1] – د.عبد العزيز نبوي، المرأة فِي شعر الأعشى دراسة تحليليَّة ،دار الصور لخدمات الطِّباعة ،القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٩٨ .

[2] – ابن منظور ، لسان العرب ، (زهر) .

[3] – النَّابغة الجعدي، الديوان ، تحقيق وشرح د/واضح الصّمد، دار صادر، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص ١٥٨ .

أمَّا عنترةُ فإنَّهُ يبرزُ جمالَ محبوبته بصورة مغايرة تَلْفِتُ الانتباه؛ وذلك حين جعل القمرَ لصًّا يسرقُ حُسْنَهَا وجمَالَهَا؛ فقال[1]:

سَرَقَ الْبَدْرُ حُسْنَهَا وَاسْتَعَارَتْ سِحْرَ أَجْفَانِهَا ظُبَاءُ الصَّرِيْمِ[2]

وفِي لوحة أخرى مزجَ عنترةُ بين اللَّون الأبيض ولون النَّار الأحمر بدرجاته المختلفة فِي إشارة إلى قَدَاسَة المرأة ؛ وهي عادة فنيَّة عند الشُّعراء حين يتغزلون بالمرأة ؛ فيذكرون النَّار وينسبونها إليها، فقال[3] :

هَذِهِ نَارُ عَبْلَةَ يَا نَدِيْمِي قَدْ جَلَتْ ظُلْمَةَ الظَّلامِ الْبَهِيْمِ
تَتَلَظَّى وَمِثْلُهَا فِي فُؤَادِي نَارُ شَوقٍ؛ تَزْدَادُ بِالتَّصْرِيْمِ
أَضْرَمَتْهَا بَيْضَاءُ تَهْتَزُّ كَالْغُصْنِ إِذَا مَا انْثَنَى بِمَرِّ النَّسِيْمِ

وفِي إضافة النَّار إلى عبلة دليلٌ على اختصاصها بهذه النَّار ، وأنَّها نارٌ أُشْعِلَتْ من أجلها؛ كتلك النَّار التي تُشعَل من أجل إرضاء الآلهة فِي المحاريب ، ويؤكد عنترة على إبراز اللَّون الأبيض (أَضْرَمَتْهَا بَيْضَاءُ) فِي رمزيَّة إلى شرف عَبْلَة وكرم أصلها .

أمَّا عن تشبيه المرأة بالمصباح فقد اكتفى طَرَفَةُ بتشبيه وجهها به؛ فقال[4] :

وَمِنْ عَامِرٍ بِيْضٌ؛ كَأَنَّ وُجُوهَهَا مَصَابِيْحُ لاحَتْ فِي دُجًى مُتَحَالِكِ

فاللَّونُ الأبيض هو لون الصَّفاء والنَّقاء والطَّهارة ، وبياض وجوه النِّساء هنا يُشبه توهُّج ضوء المصباح فِي ليل شديد السَّواد ، ولا شكَّ أنَّ الضوء سيكون أكثر سطوعًا وتوهُّجًا ، وهذا يدل على شدة بياض وجوه النِّساء وإشراقها .

---

[1] – عنترة بن شدَّاد ، الديوان ، ص ١٩٢ .

[2] – الصَّريم : القطعة من الرَّمل .

[3] – المصدر السَّابق ، نفس الصَّفحة .

[4] – طَرَفَة بن العبد ،الديوان، شرح مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ ، ص ٦٠ .

المبحث الرَّابع : تشبيه المرأة بالبيضة :

أوَّل مَن شبَّه المرأة بالبيضة امرؤ القيس؛ وذلك في قوله[1] :

وَبَـيْـضَـةِ خِدْرٍ لا يُرَامُ خِـبَاؤُهَـا تَمَتَّـعْـتُ مِنْ لَـهْـوٍ بِهَا غَـيْـرَ مُـعْجَـلِ

قال مُحمَّد بن سلام : " فاحْتَجَّ لامرئ القيس مَنْ يُقَدِّمُه قال : ما قال ما لم يقولوا ؛ ولكنَّه سبق إلى أشياء ابتدعها ، واستَحْسَنَتْهَا العربُ ، واتَّبَعَتْهُ فيها الشُّعراءُ : استيقافُ صَحْبِهِ، والتَّبْكَاءُ فِي الدِّيارِ ، ورِقَّةُ النَّسيبِ ، وقُرْبُ المأْخَذِ ، وشَبَّهَ النِّسَاءَ بالظِّبَاءِ والْبَيْضِ ، ..."[2]، وتأتي بلاغة القرآن الكريم لتؤيد هذا المعنى؛ وذلك في قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصَّافات : ٤٩]، قال الزمخشري : " شَبَّهَهُنَّ ببيض النَّعام المكنون في الأداحي، وبها تُشَبِّهُ العربُ النِّساء ، وتُسَمِّيْهنَّ : بيضات الخدور "[3]، وتُشَبَّه المرأة بالبيضة من ثلاثة أوجه : من جهة صحتها وسلامتها، ومن جهة المحافظة عليها وحمايتها، ومن جهة بياضها وصفاء لونها ونقائه، وهذا الوجه الأخير هو ما ذكره ابنُ الأنباري في شرحه للبيضة في بيت امرئ القيس السَّابق؛ حيث قال : " وإنَّما شبَّهَهَا بِبَيْضَةِ فِي خدْرِها ؛ لأنَّها مُخَدَّرة مَصُونة مَكْنُونَة، لا تبرز للشَّمس، ولا تظهر للنَّاس؛ فَشَبَّهَهَا بالبيضَةِ ؛ لصفائها وملاستها ، ويُقال : شَبَّهَهَا بِبَيْضَةِ النَّعام "[4]،" ثُمَّ إنَّني كلما راجعتُ كلمة (بيضة خدْر) رأيتُ نفسي كأني أقرؤها لأوَّل مرَّة؛ لأنَّ جدَّتها وطرافتها وإصابتها وجودتها لا يُذْهِبُ التَّكرارُ منها شيئًا، وهي من الكلمات التي لا تخلق على كثرة الرَّد، ولله المثل الأعلى،وأعْجَبُ كيف هُدي شاعرُنا الأول إلى هذه الكلمة ؟ وأي صورة للمرأة تراءت له حتَّى هَدَتْهُ إليها ؟ وإعجابي بالكلمة يقودني دائمًا إلى البحث عن الحسِّ الَّذي أثار هذه الكلمة في نفس قائلها؛ لأنَّ مثل هذه الصِّيَغ لا يصنعها اللسان، وإنَّما يصنعها ما قبل اللسان ."[5] ، قال النَّابغة[1] :

---

[1] – امرؤ القيس ، الديوان ، ص ١٣ .

[2] – مُحمد بن سلام الجُمحي ، طبقات فحول الشعراء ، شرح محمود شاكر ، دار مدني ، جدة ، ص ٥٥ .

[3] – الزمخشري،الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،دار الكتاب العربي،بيروت،/ ٤٣ .

[4] – ابن الأنباري ، شرح القصائد السَّبع الطِّوال ، ضبطه وعلَّق عليه بركات يوسف هبُّود ، المكتبة العصريَّة ، بيروت ، ١٤٣٢هـ ، ص ٧٥ .

[5] – د . محمد محمد أبو موسى ، الشِّعْر الجاهلي دراسة في منازع الشُّعراء ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٩هـ ، ص ٦١ و ٦٢ .

نَــوَاعِــمٌ مِثْلُ بَــيْــضَــاتٍ بِــمَــحْــنِيَةٍ يَحْفِزْنَ مِنْهُ ظَلِيْــمًا فِــي نَــقًــا هَــارِ [٢]

فقد شبَّه النِّساءَ بِبَيْضِ النَّعام فِي الصَّفاء والإشراق .. والشَّاعرُ الجاهلي يربط كثيرًا بين المرأة والبيضة ، ويعقد بينهما تلازمًا ؛ يُؤكد أصالة الصُّورة اللَّونيَّة البيضاء وخصوصيتها فِي شِعْرِ ما قبل الإسلام ؛ ولعل ذلك يكون من اللَّون الأبيض لِلْبَيْضَة وما يرمز إليه فِي عقليَّة الشَّاعر الجاهلي من نَفَاسَة وطهارة من جهة ، ومن ارتباط البيضة بعمليَّة الإخصاب من جهة أخرى ،ومعلومٌ ارتباط اللَّون الأبيض بالخصوبة ، وظهور المرأة فِي الشِّعْر الجاهلي بيضاء اللَّون يأتي من التَّفاؤل باستمرار الحياة وتَجَدُّد الأجيال ، وتَتَابُع النَّسْل ؛ لذلك رسم الشَّاعرُ الجاهلي لوحةً فنِّيَّةً مصبوغة بالبياض عندما شبَّهَ المرأة بالبيضة مُستحضرًا بذلك إلهة الخصوبة التي تحكي الأساطيرُ بَرَكَتَهَا فِي عمليَّة الإخصاب بعد التَّزَاوُج بين يديها والتَّفاؤل برضاها ، ولا شكَّ أنَّ هذه اللَّوحة البيضاء ترمز إلى ما تَمَتَّعَتْ به المرأة قديمًا من تقديس واحترام؛ كواحدة من المعبودات الوثنيَّة التي دان لها العربيُّ فِي تلك العصور السَّحيقة ، وهذا ما ذهب إليه الدكتور نصرت عبد الرحمن من أنَّ المرأةَ المذكورة فِي الشِّعْر الجاهلي ليست امرأة حقيقيَّة كما يُتَوَهَّم، وإنَّما هي رمزٌ مقدَّسٌ لآلهةٍ كان يعبدها العربيُّ قديمًا[٣]، وكذلك ذهب الدكتور علي البطل[٤]؛ فالمرأة هي الشَّمس التي تمدنا بالنور والصَّفاء والإشراق فِي كلِّ يوم ، وهي الغزالة التي استعارت شخصيَّة هذه الشَّمس؛ لتكون شمسًا على الأرض راعيةً للطُّفُولة والحياة ، وهي النَّار المقدَّسَة ، وهي الزهرة الجميلة كجمال وَجْنَةِ العذراء العاشقة ، ثمَّ هي البيضة مستودع الخصوبة والتَّناسل ومصنع الأجيال على مرِّ العصور .. ومن العجيب أنَّ لون البياض أصبح مرتبطًا بالمرأة حتَّى عصرنا الحاضر؛ وذلك فِي اعتياد الفتيات على ارتداء أثواب الأعراس البيضاء فِي ليالي زفافهنَّ .

---

[١] – النَّابغة الذبياني ، الديوان ، ص ٣٩ .

[٢] – مَحْنِيَة : جانب الوادي . الظَّليم : ذَكر النَّعام . يَحْفِزْنَ : يَدْفَعْنَ . النَّقا : قطعة من الرمل . هارٍ : منهار .

[٣] – د/ نصرت عبد الرحمن ، الصورة الفنيَّة فِي الشِّعْر الجاهلي فِي ضوء النَّقد الحديث ، انظر الصَّفحات من ١٠٧ – ١١٨ .

[٤] – د / علي البطل ، الصورة فِي الشِّعْر العربي حتى آخر القرن الثَّاني الهجري دراسة فِي أصولها وتطورها ، انظر الصَّفحات من ٥٥ – ٩٤ .

الفصل الثَّاني

علاقة التَّصوير اللَّوني فِي الشِّعْر الجاهلي بالْحالة النَّفسية

تعامل الشَّاعرُ الجاهلي مع الألوان من منطلق دلالاتها النَّفسية ؛ فهو ابنُ تلك الأرض الممتدة وعنصر من عناصرها، وحينما يُصوِّرُ حَدَثًا من أحداثها فإنَّه يضفي عليه بُعدًا نفسيًّا؛ سواءً تعمَّد ذلك أو لم يتعمده؛ وبالتَّالي فهو يعرضُ المواقف الحياتية المهمة عن طريق الشِّعْر وبما يبدعه فيه من لوحات فنيَّة مُلوَّنة وفق الثَّقافة اللَّونيَّة السَّائدة فِي تلك البيئة، وبحسب الدلالة النَّفسية لكل لون.

من هنا جاء تقسيمي لهذا الفصل لعدة مباحث؛ من أجل محاولة تأصيل الدلالة اللَّونية التي أفاد منها الشَّاعر الجاهلي في صُورِه .

المبحث الأول :علاقة اللَّون الأسود بالحالة النَّفسية للشَّاعر الجاهلي :

أكثرَ الشُّعراء الجاهليون من لوحاتهم الفنيَّة المصبوغة باللَّون الأسود عند تصويرهم لظلام اللَّيل ووصفهم له ، وانعكاس ذلك على نفسياتهم ، وأوَّل ما يقابلنا هو تصوير اللَّيل في البيت المشهور في معلقة امرئ القيس عندما قال[1] :

وليْلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدولَهُ عليَّ بأنــواعِ الهــمــومِ ليــبْــتلي[2]

فاللَّيلُ يموجُ بأنواع الهموم ليبتلي موجًا كموج البحر أرخى سدوله، فكأنَّ ظلمة هذا اللَّيل أستارٌ بعضها فوق بعض؛ يرخيها اللَّيلُ بيده كيف يشاء، وعلى مَن يشاء، ومن هنا تظهر الدلالة النَّفسية للسَّواد المتمثِّل في ظلمة اللَّيل من خلال الابتلاءات التي يمحِّص بها هذا اللَّيلُ قُدرات المبْتَلِين ، وبتلك الهموم والغموم والأحزان والكُرَب والمآسي التي يُرسلها عليهم ، وقد أشار إلى ذلك الشَّاعرُ بقوله : " لِيَبْتَلي"، وهي كلمة مُلهمة دالة على فروسية الشَّاعر؛" لأنَّه رأى أنَّ اللَّيل جمع همومه وظلماته وأستاره وحشد ذلك كله واحتشد بكلِّ جبروته ليغمز قناة هذا الملك وليختبر قوَّة نَفْسه، واقتدارها على أن تطيق أهوالا من الهموم ، وكأنَّ اللَّيل لا يريد قهره ولا كسْر عظامه، وإنَّما فقط يختبر بذلك احتماله، وقوَّة نَفْسه "[3]

---

[1] – امرؤ القيس ، الديوان ، ص ١١ .

[2] – سدوله : سُتوره .

[3] – د. محمد محمَّد أبو موسى ، الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء ، ص ٩٠ .

وعند عنترة بن شدَّاد حَمَلَ اللَّون الأسود دلالة الألم والبكاء بحرقة ؛ ففي نفسيته اقتران بين السَّواد المتمثل في ظلمة اللَّيل وبين الهموم والأحزان التي يجلبها معه هذا اللَّيل ؛ فتثير بكاء عنترة وتبعث آلامه وتحرِّك مواجعه ، وفي ذلك قال[1]:

وأجفانٌ تبيتُ مُقَرَّحـــــــات تسيلُ دمًا إذا جـــــــنَّ الظَّلامُ

فَتَقَرُّحُ الأجفان وسيلان الدم منها لا يكون إلا مع سواد اللَّيل؛ لذلك كان هذا التلازم بين الألم واللَّيل سببًا نفسيًّا لاختيار شعراء الجاهلية اللَّيل للرحيل والنَّوى، بينما ارتبط الصبح عندهم بانجلاء الهم وبالبهجة وإشراق الحياة ..

قال امرؤ القيس[2] :

وَحَدِّثْ بِأَنْ زَالَتْ بِلِيلٍ حُمُولُهَا كَنَخْلٍ من الأعْرَاضِ غيرِ مُنَبَّــقِ[3]

وقال عنترة[4] :

إنْ كُنْتِ أزمعْتِ الفِراقَ فإنَّما زُمَّــتْ ركَابُكُــمُ بليلٍ مظْــلمِ[5]

فاللَّيلُ عند عنترة مفرّقٌ بين الأحباب، ومُؤذنٌ بحياة مظلمة كسواده الذي يتستر به الراحلون دون أن يترك فرصة يودّع فيها بعضهم بعضا .

وبسبب المخزون النَّفسي الهائل والتَّراكمات التي امتلأت بها نفوس الشُّعراء الجاهليين تجاه اللَّون الأسود واقترانه عندهم بالرحيل والبُعد والفراق ؛ فقد أفصحت ألسنتُهم عن ذلك من خلال أشعارهم التي ملؤوها أسىً وألمًا، وضمَّنُوها التَّشاؤمَ من أشياء كثيرة؛ كتشاؤمهم من الغراب الأسود الذي اقترن عندهم بالنَّوى والرحيل، فهذا عنترة يقول[6] :

وكيف يُجيــبني رسْــمٌ مُحيــلٌ بعــيدٌ لا يَــرُدُّ على ســؤالــي[7]
إذا صاحَ الغُــرابُ به شجاني وأجــرى أدْمُــعي مِثْلَ اللآلــي

---

[1] – عنترة بن شدَّاد ، الديوان ، ص١٣٤.

[2] – امرؤ القيس ، الديوان ، ص ٣٠ .

[3] – الحمول : الإبل التي يحتمل عليها . الأعراض : الأودية ، واحدها عِرْض . غير مُنَبَّق : أي نخل لم يخرج ثمره فهو غير مُزْهٍ .

[4] – عنترة بن شداد ، الديوان ، ص ١٥٤.

[5] – أزْمَعْتِ : عَزَمْتِ على الفراق . زُمَّتْ : شُدَّتْ وخُطِمَتْ بالأزِمَّة .

[6] – المصدر السَّابق ، ص ١٣٠ .

[7] – المحيل : المتبدل من حال إلى حال .

وأخــبرني بأصنــافِ الــرزايــا وبالهِجْــرانِ مِــنْ بعدِ الوصالِ
غــرابُ البَيْنِ، مــالكَ كُــلَّ يومٍ تُعــانِدُني، وقــد أشغلتَ بالــي
كأنِّي قــد ذَبَحْتُ بِحدِّ سيفي فِرَاخَــكَ أو قَنَصْــتُكَ بالحــبالِ

إنَّها لوحة مليئة بالتشاؤم والسَّواد؛ فيها الرَّسمُ البعيد والديار الموحشة التي خَلَتْ من أهلها فسكنها الخراب وحلَّ فيها السَّواد لون الموت ، وتلاشت الحياة ، ونعقَ فيها غرابُ البيْن؛ فاستدعى بنعيقه الصُّور المحزنة التي آلمتْ قلب الشَّاعر ، وأجرتْ دموعه ، وكسرت نفسه المثخنة بتراكماتٍ تشاؤميَّة عن هذا الكائن الذي ما نعق قط إلا وتتابعت المصائب وحلَّ الفراق والخراب ، بل إنَّ أسى الشَّاعرُ بلغ حدَّه وقد أصبح الغرابُ عدوًّا لدودًا له ؛ يُلقي في أذنيْهِ أخبار الرزايا التي ستحل به، ويفجؤهُ بأنباء الهجران من بعد الوصال، ويعانده بإفساد ملذات الحياة في كل يوم ، ويشغل باله، كل ذلك في الوقت الذي يستنكر فيه عنترة هذا العداء غير المبرر ؛ فهو لم يُؤذِ هذا الغراب بنصْبِ حبال القنص له ، ولم يذبح فِرَاخَه !! وهذا يُعطي تصوُّرًا واضحًا ووحيدًا بأنَّ سواد الغراب كان بمثابة الليل الموحش المظلم لأولئك القوم ، وأنَّه كان عونًا لتلك الصَّحاري المقفرة التي بخلت على الإنسان فيها بأقل مقومات الحياة .

ثمَّ تشاءمت العربُ في الجاهليَّة من العقاب الأسْود لارتباطه عندهم بالمعارك والقتل والدماء؛ فهو من الطيور الجارحة التي تقيم في أرض المعركة لِتَرَقُّب الفرصة السَّانحة التي تتغذى فيها على أشلاء القتلى؛ " فإنَّ النسور تتبع العساكر، وقد تفعل ذلك العِقبان ... وأنا أرى ذلك في الطَّمع في القتلى "[1]، قال طَرَفَة[2] :

نَــذَرُ الأبطــالَ صرْعــى بينها تَعْكُــفُ العِقْبَانُ فيها والرَّخَم [3]

إنَّها صورة مخيفة ، ومشهد مرعب تتوالى فيه أحداثٌ مسرحها ساحةُ المعركة وقد تناثرت فيها جثث القتلى وتُركتْ مُلقاة في العراء كالجِيَفِ وقد تجمَّعَتْ حولها العِقبان ؛ وهي تقتات عليها وتهينها شر إهانة ، فلا غرابة بعد ذلك أن احْتَفَظَتْ ذاكرة الشَّاعر العربي بهذا المنظر المخيف الذي جعل من اللَّون الأسود لونًا مكروهًا وبشعًا عنده؛ لاسيما إذا ما اقترنَ بطائر العقاب .

---

[1] – الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣/ ٤٨٣ .

[2] – طَرَفَة بن العبد ، الديوان ، ص ٧٧ .

[3] – نَذَرُ : نتركُ . صرعى : قتْلى . تعكف : تجتمع وتستدير .

وقريبٌ من صورة عكوف العِقبان على جثث القتلى في أرض المعركة صورة تحليق جماعات الطير ، ومنها العِقْبان ، فوق الجيش الغازي ومُصَاحَبَتِه طمعًا في الهجوم والانقضاض على جثث من يسقطُ من قتلى ، وذلك في الأبيات المشهورة للنابغة الذبياني حين قال[١]:

إذا ما غَزَوا بالجيشِ حَلَّقَ فوقهمْ عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائبِ[٢]
يُصانِعْنَهم حتَّى يُغِرْنَ مُغَارَهُمْ من الضَّارياتِ بالدماءِ الدَّوارب[٣]
تَرَاهُنَّ خلْفَ القومِ خُزْرًا عُيُونُها جُلُوسَ الشُّيوخِ في ثيابِ المرانبِ[٤]

وقوله :" خُزْرًا عُيُونُها " تلتقي مع نظرة العرب في الجاهلية للَّون الأسود وتشاؤمهم من السَّواد في الغربان والعِقبان؛ فـ" الخَزَرُ: ضيق العين وصغرها، وقيل: هو النظر في أحد الشِّقَّيْن، ... وتخازر الرَّجل : إذا ضيَّقَ جفْنَهُ لِيُحَدِّد النَّظَر ،... وعدوٌّ أَخْزَر العين : ينظرُ عن مُعارضة كالأَخْزَر العين ، ... والخازرُ : الدَّاهية من الرجال "[٥]، فحركة الخَزَر سلوكٌ عدواني عندما قرنه النَّابغة بعصائب الطَّيْر السُّود ، وبتمركزها خلف القوم وبهيئة جلوسها الشَّبيهة بجلوس الشيوخ الذين يتدثرون بالثياب السود المصنوعة من فَرْو الأرانب .

وخلاصة القول : أنَّ اللَّون الأسْود ارتبط عند الشُّعراء في الجاهلية بالموت والمصيبة والتشاؤم وصعوبة العيش، فالأعشى جعله لونًا للفقر والجوع والبرد، فقال[٦]:

وَإذا الْقِيَانُ حَسِبْتَهَا حَبَشِيَّةً غُبْرًا، وَقَلَّ حِلائبُ الأرفَادِ[٧]

---

[١] – النابغة الذبياني ، الديوان ، ص ١٠ .

[٢] – عصائب : جماعات . تهتدي بعصائب : كناية عن كثرة ما يفتكون به من الأعداء .

[٣] – يُغِرْنَ : يهجمن على حين غرة . الضاريات : المتعودات . الدوارب : المدرَّبة على القتال .

[٤] – خُزْرًا عيونها : تنظر بمؤخرها . ثياب المرانب : الثياب المائلة إلى السَّواد والمصنوعة من فَرْو الأرانب .

[٥] – ابن منظور ، لسان العرب ، (خزر) .

[٦] – الأعشى ، الديوان ، ص ٥٤ .

[٧] – القِيَان : جمع قَيْنَة ، وهي الأمَة صانعة أو غير صانعة . الأرفاد : جمع رفد، وهو القدح العظيم . حبشيَّة : أراد أنَّها سوداء من البرد .

وطَرَفَة بن العبد شبَّه نفسه بالبعير الأجرب المَطْلي بالقطران عندما تحامتْهُ العشيرةُ ؛ أي أخذتْ تحمي نفسها منه وكأنَّهُ العدو المتربص بها ؛ فرأت فيه ما رآه صاحب الإبل من ضرورة حمايتها من بعيره الذي أصابه الجرب ، فقال[1]:

إلى أنْ تَحَامَتني العشيرةُ كُلُّها وأفْرِدْتُ إفرادَ البعيرِ الْمُعَبَّدِ[2]

وزهير بن أبي سُلمى عبَّر عن الموت وعن داهية الحرب والخراب في الديار ورحيل أهلها منها بذكر الأثافيّ السُّفْع في قوله[3]:

أَثَافِيَّ سُفْعًا في مُعَرَّسِ مِرْجَلِ ونُؤْيًا كَحَوضِ الْجُدِّ لَمْ يتثلَّمِ[4]

والأثافي السُّود ليست بعيدة عن المعنى المجازي الذي تجري فيه؛ وهو الدَّاهية العظيمة، وكلمتا " سُفْعًا "، و" مُعَرَّس " من الكلمات الدَّالة على الاحتراق، والاحتراق يولد السَّواد المرتبط في ذاكرة الشَّاعر الجاهلي بالموت والخراب والدَّمار والمصائب، إضافة إلى ما تحمله الأثافي السُّود في الثقافة العربية من معنى يدل على الداهية والمصيبة، ففي الأمثال العربية " رماهُ بثالثة الأثافي، إذا رماه بداهية عظيمة ، وثالثة الأثافيّ : القطعة من الجبل يُجْعَلُ إلى جنبها أُثْفِيَّتَان ، وتُنْصَبُ القِدْرُ عليها، ومعناه أنَّهُ رماه بأمرٍ عظيم، مثل قطعة الجبل "[5]، قال الشَّاعر[6] :

فَلَمَّا أنْ بَغَوا وطَغَوا علينا رمينـــاهمْ بثالثـــة الأثـــافي

المبحث الثَّاني :علاقة اللَّون الأبيض بالحالة النَّفسية للشَّاعر الجاهلي :

اللَّون الأبيض لون حياةٍ واستبشار عند العربي في الجاهلية ؛ وهو كما سبق لونٌ للقداسة والطَّهارة ، وشرف النَّسب، وإذا كانت الأثافيّ السُّفْع التي ذكرها زهيرٌ مرتبطة

---

[1] – طرفة بن العبد ، الديوان ، ص ٢٥ .

[2] – المعبَّد : المطلي بالقطران لإذلاله للركوب .

[3] – زهير بن أبي سُلمى ، الديوان ، ص ٣٦ .

[4] – الأثافي : الأحجار الثلاثة التي يُوضع عليها القِدْر. الْمِرْجَل : كلّ قِدْرٍيُطبخ فيها . السُّفْعَة : سوادٌ تخلطه حُمرة . النُّؤي : حاجزٌ يُرفع حول البيت من تراب؛ لئلا يدخل الماء من خارج البيت . لم يتثلَّم : قد ذهب أعلاه ولم يتثلم ما بقي منه .

[5] – أبو هلال العسكري ، كتاب جمهرة الأمثال ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وغيره ، المكتبة العصريَّة ، بيروت ، ١٤٢٦هـ ، ١/ ٤٠٤ .

[6] – ذكرهُ ابن الأنباري في شرح القصائد السَّبع الطِّوال الجاهليات ، ضبطه وعلَّق عليه بركات يوسف هبُّود ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٣٢هـ ، ص ٢٢١ .

في فِكْرِهِ بالخراب والدَّمار والحرب والمصيبة وخلو الدِّيار من أهلها؛ فإنَّ " الآرام " في قوله[1]:

بها الْعِيْنُ والآرامُ يمشينَ خِــلْفَةً وأطْلاؤُها ينهضْنَ من كلِّ مَجْثَمِ [2]

مرتبطةٌ بالحياة الجديدة التي نشأت بعد دمار الحرب وخرابها ، وهذه الحياة الجديدة رَمَزَ إليها اللَّون الأبيض الخالص في " الآرام "؛ لأنَّ " الرِّيم : الظبي الأبيض الخالص البياض"[3] ، وهنا صورة حيَّة رائعة من " الْعِين " و " الآرام " تتحرك أمام زهير، " وكأنَّ زهيرًا يشير لك بإصبعه ويقول: ها هُنَّ يمشين، ثمَّ تأتي كلمة " خِلْفَةً " فتضفي على هذه الصورة المتحركة قدرًا من التنظيم والتنسيق والتتابع، وأنَّهُنَّ جماعة تَخْلُفُ جماعة، ثمَّ تأتي كلمة" أطلاؤها" فتنقلنا من متابعة الْعِيْن والآرام ،وهنَّ الأمهات، إلى متابعة جيل آخر تنبته الأرض"[4]، فاللَّون الأبيض مرتبط في مخيلة زهير بحياةٍ حيَّةٍ متتابعة في جوٍّ من الألفة والمحبة والنظام ، بعيدًا عن الموت وخراب الديار ، ورحيل الأهل والأحباب الذي رمز إليه سَوَادُ الأثافيّ .

وفي قصيدة أبي طالب التي قالها وهو في الشِّعْب الذي أوى إليه بنو هاشم مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما تحالفت عليهم قريش وكتبوا الصَّحيفة؛ انتقلت الدلالة النَّفسية للَّون الأبيض عند العرب في الجاهلية على لسانه رمزًا للسيادة والشرف وتفاؤلا واستبشارا برسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال[5] :

وأبيَضَ يُسْتسْقَى الغَمامُ بِوَجْهِهِ ثِمَــالُ اليتامى ، عِصْمَةٌ للأرامل[6]

يَلُــوذُ به الْهُــلاكُ من آل هاشمٍ فَهُــمْ عندهُ في نعــمــةٍ وفَــوَاضِلِ[7]

---

[1] – زهير بن أبي سُلمى ، الديوان ، ص ٣٤ .

[2] – الْعِيْنُ : البقر ، الواحدة عَيْنَاء، وإنما سميت عِيْنًا لسعة أعينها. خِلْفَة : إذا مضى فوج جاء آخر . أطلاؤها : الطَّلا : ولد البقرة وولد الظبية الصغير . المجثم : موضع جثوم الغزال والأرنب والطَّائر .

[3] – ابن منظور ، لسان العرب ، (ريم) .

[4] – د. محمد محمَّد أبو موسى ، الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء ، ص ٣٤٥ .

[5] – أبو طالب ، الديوان ، جمعه وشرحة د. محمد التونجي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ ، ص ٦٧ .

[6] – الأبيض : السيِّد الشريف وإن كان أسمر اللَّون . يُستسقى الغمام بوجهه : يُدعى الله أن يمطرهم بسببه . ثمال اليتامى : عمادهم وملاذهم . عصمةٌ : مَنْعٌ ودِفاع .

[7] – الْهُلاّك : الفقراء المعدمون .

كذلك كانت دلالة اللَّون الأبيض وعلاقته بالحالة النَّفسية عند العرب في الجاهلية ، وانتقال هذه الدلالة إلى ما بعد العصر الجاهلي، وذلك عند الشَّاعر المخضْرم حسَّان بن ثابت – رضي الله عنه – في بيته المشهور الذي قال فيه[١] :

بِيْضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابُهُمْ شُــمُّ الأنُــوفِ مــن الطِّــرازِ الأوَّلِ

حيث بدأ ببياض الوجوه الدَّال على السيادة وشرف النَّسب، ثمَّ تابَعَ بذكرِ ما يترتب على رمزيَّةِ بياض الوجه من كريم الحسب، وعظيم العزَّة والأنَفَة ، وشرف النَّفس، ومثل ذلك ما جاء في قوله في حمزة بن عبد المطلب – رضي الله عنه – [٢]:

أبيضَ في الذِّرْوَةِ من هاشمٍ لَمْ يَمْــرِ دُونَ الحقِّ بالباطلِ[٣]

فهنا علاقة قويَّة بين اللَّون الأبيض وبين ما يحمله فِكْرُ العربي في الجاهلية من معنى دالٍّ على بياض الْعِرْض ونقاء النَّفس " لَمْ يَمْــرِ دُونَ الحقِّ بالباطلِ " ، وعلى الشَّرف والسيادة " في الذِّرْوَةِ من هاشمٍ" .

ومن البياض لونُ البرق ووميضُهُ الذي يستبشرُ به العربي في تلك الصَّحاري المقفرة؛ لاستشراف السَّحاب والمطر من خلاله؛ لذلك فإنَّ العربي في الجاهلية كان يأرق من أجل المطر ويحمل همَّه ويسهر اللَّيل يترقبه، وكان هذا ديدنَ الشُّعراء كذلك ومنهم أوس بن حجر الذي قال في حائيته المشهورة[٤] :

يَا مَــنْ لِبَرْقٍ أبِــيْتُ اللَّيْلَ أرْقُــبُهُ في عارضٍ كَمُضِيءِ الصُّبْحِ لَمَّاحِ[٥]

فالشَّاعرُ شديد العناية بأمر عشيرته؛ لذلك فإنَّه يترقَّب البرق لعلمه بأنَّ السَّحاب والمطر مُهمَّان من أجل حياة قومه، وأنَّ في وميض البرق ما يحمل على التَّفاؤل ويبعث السَّعادة في نفسه ونفوسهم .

ومثل تلك العناية بأمر البرق نجدها عند عبيد بن الأبرص في قوله[٦] :

---

[١] – حسَّان بن ثابت، الديوان، ضبطه وصححه عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٠هـ، ص ٣٦.

[٢] – المصدر السَّابق ، ص ٣٨٣ .

[٣] – يَمْرِي : من المراء؛ أي لا يدفع حقًّا بباطل، تقول : مراه حقَّهُ أي جحده .

[٤] – أوس بن حجر ، الديوان، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ، ص ١٥.

[٥] – العارض : السحاب الذي يتعرض على وجه السماء، أو الذي يسبقه برق شديد الوميض .

[٦] – عبيد بن الأبرص، الديوان ، ص ١١١ .

يا مَنْ لِبــرقٍ أبِيْتُ اللَّيلَ أرْقُــبُهُ في مُكْفَهِرٍّ وفي سوداءَ مَــرْكُومَــهْ [1]

لقد استدعت ذاكرتُهُ اللَّون الأبيض في ذكره لترقُّب البرق الذي يُبشِّرُ بنزول الغيث؛ من أجل حياة خصبة ومرابع مترعة بالماء والكلأ، وفي المقابل ذَكَرَ اللَّون الأسود " في سوداءَ مركومهْ " وفيه انعكاسٌ لحالة الألم وشظف العيش التي يعانيها العربي عند زمن الجدْب التي دأبَ أن يرمز لها بذكر السَّواد ، فالأبيض لون السَّعْد والفرح والأمن ، والأسود لون البؤس والحزن والخوف .

وامرؤ القيس يأمل من البرق ، وهو في لحظة خوف وهَمٍّ ، أنْ يُضيء له الظلام؛ من أجل أن يبصر أعاليَ حِمْيَر، وربَّما كان هَمُّهُ الذي يُؤرقه السَّعيَ وراء استرجاع مُلك أبيه، لذلك قال[2]:

تَبَصَّرْ خليلي هل تــرى ضوءَ بارقٍ يُضيءُ الدُّجَى باللَّيلِ عن سَرْوِ حِمْيَرَا [3]

إنَّه يتوق لرؤية ضوء البرق الذي يعكس بياضُهُ الأمل في لحظة انفراجٍ وفرح تنبثق من خلال ســواد الهم المطْبِق ليرى أعاليَ بلاد حِمْيَر باليمن التي شاقه الحنينُ إليها ، وهو في رحلته طالبًا من " يوستنيانوس ، قيصر بيزنطيَّة، أن يُناصره على مناوئيه "[4]، حيث إنَّ امرأ القيس " تنقَّل في مواضع متعددة من الجزيرة ، ووصل إلى القسطنطينيَّة عاصمة الروم "[5]، فالبياض هنا رمزٌ لانقشاع الهم وذهاب الغم وانفراجه بعودته منتصرًا من رحلته ، وظفره باسترجاع مُلك أبيه ، والسَّواد رمزٌ للهم والغم والبعد عن بلاده وذهاب مُلك أبيه .

لقد تفاءل العربي في الجاهلية باللَّون الأبيض للبرق؛ حتَّى وإن كان هذا البياض واللمعان بعيدًا عن حالة السحاب والمطر؛ فلقد ذكر عنترة بن شداد البرق في ديوانه في أكثر من ثلاثين بيتًا أكثرها كان في ذكر بريق السيوف في ظلمة قتام المعارك ، وثلاثة أبيات فقط كانت في ذكر البرق المصاحب لعارض المطر ، وهذا يعزز ما يدور في

---

[1] – الْمُكْفَهِر : السحاب المتراكب بعضه فوق بعض . سوداء : ليلة سوداء . مركومة : أي تراكمتْ ظلمتها .

[2] – امرؤ القيس ، الديوان ، ص ٣٩٤ .

[3] – سَرْو حِمْيَر : موضع ، أو أعالي بلاد حِمْيَر باليمن .

[4] – امرؤ القيس ، الديوان ، تحقيق حنا الفاخوري ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ ، ص ٣٣٠ .

[5] – د / جواد علي،المفصَّل فِي تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٣/ ٣٦١ .

فكرُ العربي في الجاهلية من تفاؤل وصور مشرقة عن اللَّون الأبيض ، وهذه الصُّور يعبِّر عنها الشعراءُ تلقائيًا متى ما احتاجوا لجرعات من التَّفاؤل والأمل ، قال عنترةُ[1] :

وبَوارقُ الْبِيْضِ الرِّقَــاقِ لوامعٌ في عارضٍ مثْلِ الغمامِ الْمُرْعِدِ[2]

إنَّ بريق السيوف يبعث الرَّاحةَ في نفس عنترة ، ويجلب الأنس؛ لأنَّ البياضَ إشراقة أملٍ في الجو القاتم المظلم، وذِكْرُهُ للغمام المرعد ، وهو يتحدث عن جو معركة كثيف السَّواد ، استدعاءٌ منه للحالة الطبيعيَّة لِلْعَارض عندما يُسْتَبْشَرُ به، من أجل أن يخفف عبوس الظلام الذي يحدثه عارضُ المعركة الناشئ عن الغبار الكثيف .

وعلى عكس دلالات اللَّون الأبيض التي ذُكِرَتْ كان بياضُ الشَّيب بياضًا مثيرًا للحزن والأسى والكآبة عند العربي في الجاهلية ؛ لأنَّه أحد نُذُر الموت ، قال عبيد بن الأبرص[3] : " والشَّيبُ شَيْنٌ لمن يشيبُ " ، وقال أيضًا [4]:

والشَّيْبُ شَيْنٌ لمن يحتلُّ ساحَتَهُ للهِ درُّ سَــوَادِ اللِّــمَّــةِ الخــالــي[5]

جعل الشَّاعرُ من الشَّيب مصيبةً نزلتْ به فلم تفارقه؛ فهو يأسف على زمن الشَّباب الذي ولَّى؛ فالأسود لون محبوب عنده؛ لأنَّهُ مقترنٌ في نفسه بالشباب والقوة ، والأبيض مكروهٌ تنفر منه نفسه وتستوحش؛ لاقترانه بالشيب الذي هو سبيلٌ لإعراض زوجته التي كانت تقبل عليه عندما كان شابًّا، وفي ذلك قال[6] :

تُــرِيْــنِي آيــةَ الإعراضِ منها وَفَظَّتْ في المقــالةِ بعــدَ لِينِ
وَمَطَّــتْ حَــاجِبَيْهَا أَنْ رأَتْــنِي كَبِرْتُ وَأَنْ قَدِ ابْيَضَّتْ قُروني

وكذلك الحال عند الأعشى الذي أكَّد كُرْه النساء للشيب في قوله[7] :

وأجْمَعَتْ صَرْمَنَا سُعْدَى وَهِجْرَتَنَا لَمَّــا رأتْ أنَّ رأســي اليومَ قــد شابا

---

[1] – عنترة بن شدَّاد ، الديوان ، ص ٦٣ .

[2] – الْبِيْض : السيوف . العارض : ما اعترض في الأفق وسدَّه من غيم أو غيره .

[3] – عبيد بن الأبرص ، الديوان ، ص ٢٣ .

[4] – المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

[5] – الشَّين : البغيض . الخالي : الماضي . اللِّمَّة : الشَّعر الذي جاوز شحمة الأذن .

[6] – نفسه ، ص ١٢٢ .

[7] – الأعشى ، الديوان ، ص ١٦ .

المبحث الثَّالث: علاقة لون الغُبار ولون الرَّماد بالحالة النَّفسية للشَّاعر الجاهلي:

تشاءم العربُ في الجاهلية من لون الغبار ولون الرَّماد؛ فالغبار لا يثور إلا عند موت زعيم من زعماء الجن كما كان يعتقد العرب في الجاهلية ، ولموت هذا الزَّعيم تجتمع الجن فتثير الغبار عند غضبها وعند تأهبها للانتقام .

كما اقترن لونُ الغبار باحتدام المعارك وجَلَبَةِ الخيل التي يتطاير الغبار في أعقابها ، وقد ذكر الشُّعراء الجاهليون ذلك كثيرًا ؛ فهذا طفيل الغَنَوِي يذكر الخيل الأصيلة في ميدان المعركة فيقول[1]:

إذا هَـبَطَـتْ سهـلاً كأنَّ غُـبارَهُ بِجَانِبِهِ الأقصى دَوَاخِنُ تَنْضُبِ[2]

يُـبادِرْنَ بالفـرسـانِ كُـلَّ ثَـنِيَّـةٍ جُنُوحًا كَـفُرَّاطِ القَطَا الْمُتَسَرِّبِ [3]

فكأنَّ الغبار المتطاير تحت سنابك الخيل دواخن متطايرة من أشجار تَنْضُب عند احتراقها .

وقال امرؤ القيس[4]:

تَذَرُ الْعَجَاجَ وراءَها مُتَنَصِّبًا رَيْعَـانُهَـا ، وكأنَّها السُّبْـدُ [5]

لقد احتفظَتْ ذاكرةُ امرئ القيس بدلالة اللَّون الأغبر عند ذَكْره مشهد الغبار المتطاير عاليًا بسبب ضَرْب الخيل المسرعة بحوافرها الأرض ، وإلى جانب اللَّون الأغبر ذَكَرَ السَّواد من خلال ذِكْر العقبان السُّود التي سبق ذكر دلالة اللَّون الأسود فيها .

وقال امرؤ القيس في موضع آخر[6] :

مِسَحٍّ إذا مالسَّابحاتُ على الْوَنَى أَثَـرْنَ غُـبَارًا بالكَـدِيْدِ المُـركَّلِ[7]

---

[1] – طفيل الغنوي ، الديوان ، شرح الصمعي ، تحقيق حسَّان فلاح ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م ، ص ٢٧ .

[2] – تَنْضُب : شجر له دخان أبيض .

[3] – جُنُوحًا : أي فيه إصغاء، وقد جَنَحْنَ إلى الأرض قليلا . فُرَّاط : سوابق القطا والمتقدمة منها ، والواحد فارط . المتسرِّب : التي تمضي سُربةً سُربة . الثَّنِيَّة : في الجبل ، والطريق الْمُنْحَفِر في الربوة .

[4] – امرؤ القيس ، الديوان ، ص ٢٣٣ .

[5] – مُتَنَصِّبًا : عاليًا . ريعانُها : أوائلها . السُّبْد : العقبان في ألوانها إلى السواد .

[6] – المصدر السابق ، ص ٢٠ .

[7] – مِسَحّ : يَسِحُّ الْعَدْو سَحًّا مثل المطر. السَّابحات : الخيول التي تبسط يدها إذا عَدَتْ فكأنَّها تسبح . الْوَنَى : الفتور. الكديد : ما غلظ من الأرض . الْمُرَكَّل : الذي ركَلَتْهُ الخيل بحوافرها .

أمَّا عنترة بن شداد فقد أكثر من ذَكر الغبار الذي تثيره سنابك الخيل في أرض القتال، وفي إكثاره ما يدل على شِدَّة المعركة وما فيها من رُعب وموت ينتظر الأعداء ، ومن ذلك قوله[١] :

وما أبْعَدْتُ حتَّى ثارَ خلفي غُبارُ سَنَابـــــك الخـــيلِ الْعِتَاقِ[٢]
وَطَـبَّـقَ كُـلَّ ناحـيةٍ غُـبَـارٌ وأُشْعِلَّ بالْمُـهَـنَّـدَةِ الـرِّقَـاقِ

وربط عنترة في بعض أبياته بين الغبار والموت ليزيد الرهبة في قلوب الأعداء ، وهذا الربْطُ موجود أصلا في مخيلة العربي في الجاهلية؛ فالغبار الذي يتطاير في ساحة المعركة هو موت تحمله الخيل للأعداء، وكثافته كثافةٌ في الموت والخوف والرعب ، وفي ذلك قال[٣] :

وَخَيلٍ تحملُ الأبطالَ شُعْثًا غَـدَاةَ الرَّوعِ أمثالَ السِّهَامِ
عَنَاجِيْجٍ تَخُبُّ على رَحَاهَا تُثِـيْرُ النَّقْعَ بالموتِ الزُّؤامِ[٤]

وقريب من الغبار لونُ الرَّماد الذي يوحي بالدَّمار والهلاك، وإذا أتى الحريق على كلِّ شيء لم يبق سوى الرَّماد المقترن في فكر العربي في الجاهلية بتلاشي كل شيء وذهابه ، وعند ذكر الشَّاعر الجاهلي للأطلال البالية كان يُكثر من ذكر هذا اللَّون إلى جانب ذكر سوَاد الأثافي ذي المغزى المخيف في الثقافة العربية ؛ كما هو الحال في تشبيه مؤخرة الفَرَس بالأُثْفِيَّة في قول امرئ القيس[٥]:

وَإِنْ أدْبَرَتْ قُلْتَ أُثْفِيَّةٌ مُلَمْلَمَةٌ لَـيْسَ فيها أُثُـرْ[٦]

هنا شبَّه امرؤ القيس مؤخرة فَرَسه بالأُثْفِيَّة الملساء التي ليس فيها أثر؛ لكنّ الصُّورة أعمق من ذلك؛ لأنَّها محمَّلة بدلالات المصائب والدَّواهي العظيمة ، وللتأكد من ذلك فقد استَعْرَضْتُ هذا البيت ضمن سياقه في كامل قصيدة امرئ القيس التي قالها في قتال

---

[١] – عنترة بن شداد ، الديوان ، ص ١٠٨ .

[٢] – السَّابك : جمع السُّنْبُك ، وهو حافر الخيل .

[٣] – المصدر السَّابق ، ص ١١٤ .

[٤] – عناجيج : جمع عُنْجُوج بالضَّم ، وهو النجيب من الإبل ، وقيل : هو طويل العنق من الإبل والخيل . تَخُبّ على رحاها : تُسرعُ حين نُسرع . الموت الزؤام : الموت الكريه السريع الْمُجْهِز .

[٥] – امرؤ القيس ، الديوان ، ص ١٦٦ .

[٦] – الأُثْفِيَّة : الصخرة المدوَّرَة المُجْتَمِعَة .

ثعلبة بن مالك، وما كان من أمْرِ مقتله على يديه في تلك المعركة ، وقد تبيَّنْتُ من دلالة الأُثفيَّة وأنَّها مُنتزَعة من أجواء القتال المثخنة بالمصائب والموت والدماء والأشلاء؛ فالقصيدة ممتلئة منذ بدايتها بدلالات الشؤم والاحتراق الذي ذكره الشَّاعر في قوله[1] :

إذا رَكِبُوا الخيلَ واستَلْأَمُــوا تَحَــرَّقَتِ الأرضُ والْيَــومُ قَــرّْ[2]

وكانت صورة الأُثفيَّة أثناء إدبار الفَرَس، بينما استخدم امرؤ القيس صورة " الدُّبَّاءة " في حال إقبالها، بل إنَّها دُباءةٌ مغموسة في النَّعيم والخير؛ فالعربُ تستبشرُ بإقبال الخيل ونواصيها ، وجاء التَّشاؤم بإدبار الخيل عند امرئ القيس حيث خُيِّلَ إليه صورة الأُثْفيَّة السَّوداء المتحَرِّقَة عند إدبار فَرَسِه .

وفي وصف عبيد بن الأبرص للدِّيار الخالية الْمُقْفِرَة ذكرَ " الرَّماد الغبي "؛ فقال[3] :

دارُ حَيٍّ أصابَهُمْ سَالِفُ الدَّهرِ فَــأَضْحَــتْ دِيارُهُــمْ كالخِــلالِ[4]

مُــقْفِــرَات إلا رَمَــادًا غَبِيًّا وبَــقَــايَا مِــنْ دِمْــنَــةِ الأَطْــلالِ[5]

والرَّماد الغبي هو الرَّماد الخفي، " غَبِيَ الأمْرُ عَنِّي : خَفِيَ فلم أَعْرِفْهُ ، والغباء شِبْه الغَبَرَة في السَّماء ، والغَبَاءُ : الغُبَار ،..."[6]، فجاء الشَّاعرُ بذكر الرَّماد الخفي في معرض ذِكره لخلو الديار من أهلها؛ بسبب فجائع الدَّهر، فالحياة تلاشت، والبشرُ ذهبوا، والأحباب تفرَّقوا، وبقي تشاؤم الشَّاعر بما يراه في تلك الدِّيار من الرَّماد والدِّمَن والأطلال البالية .

ومن عادة العرب في الجاهلية أثناء تشييع الميت ما كان يصنعه النساء من ذرِّ الرَّماد فوق رؤوسهنَّ ، وما لذلك الفعل من دلالة على الأسى والحزن وألم الفقد، وما أصبح يُمثله لون الرَّماد من رمزية محزنة عند العرب في الجاهلية ، " وكان تشييع

---

[1] – المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

[2] – استلْأَمُوا : لبسوا اللأمة ، وهي السلاح . قرّْ : بارد .

[3] – عبيد بن الأبرص ، الديوان ، ص ٩٥ .

[4] – الخِلال : جمع خلة ، وهي جفن السيف المغطَّى ببطانة منقوشة بالذهب وغيره .

[5] – مُقْفِرَات : خاليات . غَبِيًّا : خَفِيًّا .

[6] – ابن منظور ، لسان العرب ، (غبا) .

الميت عند عرب البادية بمشي الأقارب خلف الجنازة حُفاة، وبِحَلِّ النِّساء شُعورهنَّ ، وتلطيخ رؤوسِهنَّ بالرَّماد ..."[1]

المبحث الرَّابع : علاقة اللَّون الأحمر بالحالة النَّفسيَّة عند الشَّاعر الجاهلي :

الأحمر عند العرب في الجاهلية لونٌ يرمز للدَّم والقتل والخوف ، ومنه تأنف النُّفوس لارتباطه بالمعارك والقتال، وارتباطه في فكر الشَّاعر الجاهلي بالفقر والشرّ والتشاؤم من لون الإنسان ولون عينه وشَعَره، وفي هذا الأمر يُطالعنا البيت المشهور لزهير بن أبي سُلمى عندما قال وهو يذكر أهوال الحرب[2] :

فَتُنْتِجُ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ كَأَحْمَرِ عَـادٍ، ثُـمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِـمِ[3]

فالتَّشاؤم من أهوال الحرب استدعى اللَّون الأحمر الذي اقترنَ في ذاكرة زهير بشؤم أحمر ثمود قُدار بن سالف ؛ عاقر ناقة نبي الله صالح – عليه السَّلام – فالتَّهور الذي سبَّبَهُ هذا الجاهل الأحمر لقومه ستمتلئ بآلاف مثله أرض عبس وذبيان ؛ تنتجهم الحرب المشؤومة ، وتنبتهم الأرض التي سُقِيَتْ بالدماء، " وإذا كان أحمر عاد هلك شؤمُهُ قومَهُ ودمدم عليهم ربُّهُم بذنبهم، فكيف بأرضٍ كلها من أحمر عاد ؟ وهذا تصويرٌ بالغ، وإنَّما أراد زهير الأجيال التي ولدتها هذه الحرب وهي مغموسة بالدماء؛ فهذا قُتل أبوه ، وذلك قُتل أخوه، والدم لا يهدأ إلا بالدم ..."[4]

وتشاءم الشَّاعر الجاهلي من حُمرة السَّماء؛ لارتباط السَّماء في مخيلته وهي حمراء بالفقر والفاقة، وفي ذلك قال الأعشى[5] :

إذا احْمَرَّ آفَاقُ السَّماءِ وأعْصَفَتْ رِيـاحُ الشِّـتَـاءِ، واسْتَهَـلَّتْ شُهُورُهَا

تَرَيْ أنَّ قِدْرِي لا تزالُ كَـأنَّهـا لِذِي الْفَـرْوَةِ الْمَـقْـرُورِ أمٌّ يَـزُورُهَـا[6]

---

[1] – حنا الفاخوري ، الجامع في تاريخ الأدب العربي – الأدب القديم ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦م ، ص ١٤٦ .

[2] – زهير بن أبي سُلمى ، الديوان ، ص ٤٣ .

[3] – أحمر عاد : أراد أحمر ثمود عاقر النَّاقة ولكنه غَلِطَ . تُرْضِعِ فَتَفْطِمِ : يريد أنَّه يَتِمُّ أمْرُ الحرب كالمرأة إذا أرضَعَتْ ثم فَطَمَتْ فقد تَمَّمَتْ .

[4] – د. محمد محمد أبو موسى ، الشعر الجاهلي – دراسة في منازع الشعراء ، ص ٣٩٢ .

[5] – الأعشى ، الديوان ، ص ٦٩ .

[6] – المقرور : الذي أصابه البرد .

لكن احمرار السَّماء لن يحول بين الشَّاعر الكريم وبين الكرم؛ فهو سخي اليد، سمح النَّفس، على الرغم من قسوة الظروف وصعوبة الحياة .

وإذا كان اللَّون الأحمر لونًا يدل على الدم والقتل والتشاؤم كما سبق؛ إلا أنَّ ذاكرة الشَّاعر الجاهلي احتفظتْ في جانب منها برمزيَّةٍ مُبهجة مُحبَّة لهذا اللَّون ؛ ذلك عندما يكون الأحمر رمزًا للانتصار على الأعداء والإثخان فيهم قتلًا وتنكيلًا؛ فعنترة بن شداد – على سبيل المثال – وهو يتحدَّث عن الأحمر (لون الدم) في انتصاراته فإنَّه " لا يريد من اللَّون الأحمر الدم الذي يُبصره كل إنسان، وإنَّما يريد ما وراء الدم ؛ فحين يُخبرُ أنَّ حصانه تسربل بالدم فهو يصف البطولة التي كان يؤديها ويُعرف بها "[1]، وهي البطولة التي يعشق صاحبها رؤية الدماء تسيل من الأعداء ، وهي البطولة التي اتَّصَفَتْ بها قبيلة آل عبس التي أُكْرِم بانتمائه إليها ، وهي القبيلة التي يتذوق فرسانُها طعم الدم في أفواههم ألذ وأطيب من طعم الشَّهْد ، وفي ذلك قال[2] :

ويصْحَبُني من آلِ عبْسٍ عِصابةٌ لهـا شَرَفٌ بين القبائل يَمْـتَـدُّ

بَهَالِيلُ مِثْلُ الأُسْدِ في كلِّ موطنٍ كـأنَّ دمَ الأعـداءِ في فَمِهِمْ شَهْدُ[3]

واللَّون الأحمر لون الانتصار عند الجيش المنتصر في الوقت الذي يكون لونًا للرُّعْب والقتل عند الجيش المنهزم ، وفي شأن الانتصار قال عمرو بن كلثوم[4] :

بأنَّا نُوردُ الرَّاياتِ بِيْضًا ونُصْدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رَوِيْنَا

فالرَّاياتُ البِيْضُ عند بدء المعركة يرجعونها راياتٍ حمراء عند انتهاء الحرب وقد ارتوتْ من الدماء؛ رمزًا للغَلَبَةِ والنصر على الأعداء .

واللَّون الأحمر على نحْرِ الفَرَس علامة على أصالته وشِدَّة سُرعته؛ بحيث يستطيع اللحاق بالوحوش المتقدِّمة ، وهو رمزٌ لفرح الفارس واستبشاره بما حازه من صيد، وفي ذلك قال امرؤ القيس[5] :

---

[1] – فاتن عبد اللطيف العامر ، القيم الأخلاقية في شعر عنترة بن شداد العبسي – دراسة موضوعيَّة وفنية – ، نادي القصيم الأدبي ، ١٤٣٠هـ ، ص ٢٩٠ .

[2] – عنترة بن شداد ، الديوان ، ص ٥٥ .

[3] – بَهَاليل : جمع بُهْلُول؛ وهو السَّيِّد الجامع لصفات الخير الْمَرِح الضَّحَّاك . الشَّهْد : العسل .

[4] – عمرو بن كلثوم، الديوان، تحقيق أيمن ميدان، النادي الأدبي الثقافي بجدة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ،ص ٣١٨.

[5] – امرؤ القيس ، الديوان ، ص ٢٣ .

كأنَّ دمـــاءَ الهاديات بِنَحْـــرِهِ عُصَارَةُ حِـــنَّـــاءٍ بِشَيْبٍ مُـــرَجَّلِ[1]

فالدماء على نحْر الفَرَسِ الذي يُطارِدُ به الفارسُ الصَّيدَ أمْنٌ للفارس؛ لارتباطها في ذهنه بالغذاء الذي يُشبعه ويؤمن حياته، وهي كذلك ابتهاج له وسرور وغبطة لارتباطها في فكره بأصالة فَرَسِه وعِتْقه .

وارتبط اللَّون الأحمر عند العرب في الجاهلية بالزينة، ومنها خضاب المرأة الذي يدل على البهجة والسرور والفرح .

قال النَّابغة الذبياني[2] :

سقَطَ النَّصيفُ ولمْ تُرِدْ إسْقَاطَهُ فَتَنَـــاوَلَـــتْهُ واتَّـــقَـــتْـــنَـــا بِـــالْـــيَـــدِ[3]

بِـــمُخَـــضَّبٍ رَخْصٍ كَأَنَّ بَـــنَانَهُ عَـــنَمٌ على أَغْـــصَانِـــهِ لَـــمْ يُـــعْـــقَـــدِ[4]

وقال الأعشى[5]: غَـــرَّاءُ تَـــبْهَـــجُ زَوْلَـــهُ والْكَـــفُّ زيَّنَها خِضَابُـــهْ[6]، فالخِضابُ الأحمر زينة للكف .

ويلحق باللَّون الأحمر لونُ النَّار الدَّال على اللَّهيب والحرارة ، وقد ربط الشَّاعرُ الجاهلي بينه وبين الحرب ، مما جعله لونًا مكروهًا مثيرًا للخوف والرعب في نفسه؛ فالنَّار تأكلُ كلَّ شيءٍ متى ما احتدمَتْ واستعرتْ، وفي القرآن الكريم: ﴿ ... كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة : ٦٤] ، وقالت العرب : " نارُ الحربِ أسْعَرُ"[7]، فقد " كانت العربُ إذا أرادت حربًا أوقَدَتْ نارًا لتصير إعلامًا للنَّاهضين فيها "[8]، وامرؤ القيس شبَّه الحرب في بدايتها بالفتاة الحسناء؛ فالحرب في أولها تُغري الفرسان ، والمرأة الفتيَّة الجميلة تجذب العشَّاق ، ثمَّ يأتي المشهد الآخر ؛ وهو مشهد الحرب المحتدمة التي زاد سُعارها فأصبحت تكبر

---

[1] – الهاديات : السَّابقات المتقدمات من الوحش .

[2] – النابغة الذبياني ، الديوان ، ص ٢٩ .

[3] – النَّصيف : الخمار .

[4] البنان : جمع بنانه وهي الأنْمُلة . الْعَنَم : شجرٌ لَيِّن الأغصان لطيفها . رَخْص : لَيِّنٌ وطري . الْمُخَضَّب : الكف.

[5] – الأعشى ، الديوان ، ص ٢٣ .

[6] – زَوْلَه : شخصه .

[7] – الميداني ، مجْمع الأمثال ، تحقيق سعيد اللَّحام ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٢٢هـ ، ٢/ ٤٠٥ .

[8] – المصدر السَّابق ، نفس الجزء ونفس الصَّفحة .

شيئًا فشيئًا حتَّى تأتي على الأخضر واليابس، وحتَّى يتعذر على الحكماء إيقافها؛ فهي في هذه الصورة أشبه ما تكون بالعجوز الشَّمطاء التي تركها الرجال لقبحها وبشاعة خلقتها، وفي ذلك قال[1] :

الحربُ أوَّلُ ما تكونُ فتيَّةً تسعى بزينتِها لكلِّ جَهُولِ
حتَّى إذا اسْتَعَرَتْ وشَبَّ ضِرامُهَا عادَتْ عَجُوزًا غَيْرَ ذاتِ خَلِيْلِ
شَمْطَاءَ جَزَّتْ رأسَهَا وتَنَكَّرَتْ مكْروهةً للشَّمِّ والتَّقبيلِ

المبحث الخامس : علاقة الألوان الأصفر والأخضر والأزرق بالحالة النَّفسية عند الشَّاعر الجاهلي :

الأصفر الشَّاحبُ لونٌ مشؤومٌ لارتباطه في عقلية العربي في الجاهلية بالمرض الذي يقود إلى الموت، والأصفر لونٌ يدل على المصيبة والداهية الدهياء ، وأي مصيبة أعظم من مصيبة الموت؟ وهكذا سمَّاها الله في القرآن الكريم ، فقال تعالى : ﴿ ... إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ...﴾ [المائدة : ١٠٦]، وفي هذه الدلالة للَّون الأصفر قال لبيد بن ربيعة[2] :

وكُلُّ أُناسٍ سَوفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُوَيْهِيَةٌ؛ تَصْفَرُّ مِنْهَا الأَنَامِلُ

" يعني الموت؛ فعبَّر عنه باصفرار الأنامل ؛ لأنَّها تصْفَرُّ من الميت "[3]؛ فجاء التَّصوير باللون الأصفر عن طريق الكناية .

وفي دلالة اللَّون الأصفر الشَّاحب صوَّر عبيد بن الأبرص، عن طريق الكناية باصفرار رؤوس أصابع القتيل، ما تُحْدِثُهُ الطَّعنة التي يوجهها للخصم؛ حين تتركه ينزف نزفًا شديدًا يؤدي به إلى الموت؛ فقال[4] :

قدْ أتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرًّا أنامِلُهُ كأنَّ أثْوَابَهُ مُجَّتْ بِفِرْصَادِ[5]

---

[1] – امرؤ القيس ، الديوان ، ص ٣٥٣ .

[2] – لبيد بن ربيعة ، الديوان ، ص ١٤٥ .

[3] – أبو هلال العسكري ، كتاب الصِّناعَتَيْن – الكتابة والشِّعر – ، تحقيق مُفيد قميحة ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ ، ص ٣٨٧ .

[4] – عبيد بن الأبرص ، الديوان ، ص ٥٦ .

[5] – القِرْن : النظير في الشَّجاعة . مُجَّتْ : صُبِغَتْ . الفِرْصَاد : التوت .

وارتبط اللَّون الأصفر عند العربي في الجاهلية بالذلّ والانكسار؛ فدوَّن الشَّاعر الجاهلي تلك الدلالة ، ومن ذلك قول الأعشى[١] :

وولَّى عُمَيْرٌ وهْوَ كَابٍ كأنَّما يُطَلَّى بِحُصٍّ، أو يُغَشَّى بِعِظْلِمِ[٢]

إنَّ هجاء الأعشى لعُمير بن عبد الله بن المنذر جعلهُ ذليلًا منكسرًا شاحب اللَّون مُصفرًّا كأنَّما طُلِي بالزعفران أو بالْعِظْلِم ، وهذه الصفرة التي تعتري الإنسان الخجول أو الذليل المنكسر تعكس حالة نفسيَّة من الاستياء يمر بها ؛ فيذهب معها رونق وجهه وإشراق مُحيَّاهُ فيحاول البعد عن النَّاس والتَّواري عن أنظارهم .

أمَّا الأخضر فإنَّه لون الحياة والخصب والنَّعيم ، وهو لونٌ يعكس الحالة النَّفسية في أعلى درجات الراحة والسرور والرخاء؛ فإذا رأى العربي في الجاهلية السهول الخضراء اسْتَبْشَرَ وفرح بها لما تعكسه من رغد العيش له ولقومه ولأنعامهم، ومن هنا جاء تشبيه الشَّاعر الجاهلي الظَّعائن المتحملة بالنخيل الشَّديد الخضرة المحمَّل بالثَّمَر؛ تفاؤلا بحياة رغيدة من الخصب والخير لهؤلاء الراحلين ، ومن ذلك قول امرئ القيس[٣]:

أَوَمَا تَــرَى أظعَانَهُــنَّ بواكِــرًا كالنَّخْلِ من شَوْكَانَ حينَ صِرَامِ[٤]

حيث شبه الأظعان في ارتفاع هوادجهنَّ واختلاف ألوانها بالنَّخيل الذي حان صِرامه، إشارة إلى كثرة النَّعيم والخير،" ويُشبِّهون ذَنَب النَّاقة الكثيف بِقِنْو النخلة المتدلي، ويُشبِّهون عَرَق الإبل المعقد بالرُّبّ، ويختار الشُّعراء للنخلة وضعًا خاصًّا عندما يُشبهونها بالظعن فلا بد أن تكون بالحمل مكمومة ، وقد حان صرامها، وقد زهت أعذاقُها بالثمار الملونة الزاهية ، ولا بد أن تكون نخلة تطاولت فروعها وسَمَقَتْ ، وقد تأبَّتْ على مريدها وارتفعت عن أيدي جُناتها"[٥]، قال بشر بن أبي خازم الأسدي[٦] :

---

[١] – الأعشى ، الديوان ، ص ١٨٨ .

[٢] – الْحُص : الزعفران . العِظْلِم : نبت يُخْتَضَبُ به .

[٣] – امرؤ القيس ، الديوان ، ص ١١٥ .

[٤] – شوكان : موضع كثير النَّخل ناعِمُهُ .

[٥] – د. أنور عليان أبو سويلم ، الإبل في الشعر الجاهلي – دراسة في ضوء علم الميثولوجيا والنقد الحديث –، دار العلوم ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ ، ص ١٩٦ .

[٦] – بِشر بن أبي خازم ، الديوان ، شرحه د. صلاح الدين الهواري ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م ، ص ١٤٢ .

كَأَنَّ حُدُوجَهُمْ لما اسْتَقَلُّوا نَخِـيْلُ مُـحَـلِّمٍ فيهـا يُـنُوعُ[1]

وقال عبيد بن الأبرص[2] :

كأَنَّ أظـعانَهُمْ نَـخْـلٌ مُوَسَّـقَـةٌ سُودٌ ذوائبُهَا بالْحَمْلِ مَكْمُومهْ[3]

حيث شبه الجِمال وفوقها النِّساء في الهوادج بنخل كَثُرَ حَمْله واخضرَّتْ غصونه اخضرارًا شديدًا يبدو كأنَّه أسود من كثرة الرَّي والخصب .

وارتبط اللَّون الأخضر في فكر الشَّاعر الجاهلي بِذِكْر الكتائب القويَّة المنيعة في الجيوش؛ فإنَّه دليل على سلامة الجنود من خلال مقاومتهم الشَّرسة وثباتهم في المعارك على الرغم من كثرة الأخطار المحدقة بهم ، فقد قال لبيد بن ربيعة في معرِض رثائه النعمان بن المنذر يذكر بطولاته[4] :

أوَتْ لِلشِّياحِ واهْتَدَى لِصَلِيْلِهَا كتائبُ خُـضْرٌ ليس فيهِـنَّ ناكِـلُ[5]

حيث وصف الكتيبة بالخضرة؛ بسبب شجاعة جنودها وقدرتهم على المقاومة والمحافظة على سلامتهم وسلامة عتادهم، وربَّما كان ذكر الأخضر دليلًا على كثرة الجنود وكثرة ما يلبسونه من دروع وسلاح .

وأمَّا اللَّون الأزرق فإنَّه لونٌ له دلالاته المؤلمة في نفسيَّة العربي في الجاهلية، وقد ذكرتُ في التَّمهيد لهذه الدراسة بعضًا من تلك الدلالات، وأضيف هنا بأنَّ فكر الشَّاعر الجاهلي الممثل لفكر الإنسان العربي بصفة عامة في ذلك العصر قد ربط بين هذا اللَّون وبين العداوة والأعداء والخوف والقلق، ولوَّن الطيور الجارحة كالصقور والحيوانات المفترسة أو المخيفة كالأغوال والكلاب باللَّون الأزرق، وجعل عيون الأعداء زُرقًا ، وهو لون الألم والعذاب والأهوال، وفي القرآن:﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه : ١٠٢]، واختار الشُّعراء الجاهليون اللَّون الأزرق لونًا

---

[1] – الْحُدوج والأحداج والحدائج : مراكب النِّساء . استقلوا : ذهبوا وارتحلوا . مُحَلِّم : نهر ، وقيل : عين ثرَّة فوَّارة بالبحرين . يُنُوع : ناضج .

[2] – عبيد بن الأبرص ، الديوان ، ص ١١٠ .

[3] – مُوسَّقَة : مثقلة بالثمار . السُّود : المراد هنا الخُضْر . الذوائب : الأطراف . المكمومة : المغطَّاة .

[4] – لبيد بن ربيعة ، الديوان ، ص ١٤٧ .

[5] – أوَتْ : أي لجأت الكتيبةُ . الشِّيَاح : الحملة . ناكل : جبان .

للأعاجم الذين يسقون الخمرة في مجالسها، ومن هنا كان هذا اللَّون مثيرًا للشكّ والريبة ومجافيًا للأنس والأخوة العربية ، قال الأعشى[١] :

تَنَخَّلَهَا من بِكَارِ الْقِطَافِ أُزَيْـرِقُ آمِـنُ إِكْـسَـادِهَـا [٢]

بينما جعل العربيَّ أبيض اللَّون، فقال[٣] :

وَأبيَضَ مُخْتَلِط بالكِرا .....مِ؛ لا يَتَغَطَّى لإنْفَـادِهَـا[٤]

فهذا الصَّاحبُ العربي فتىً يُستَبْشَرُ به، وهو كريم يخالط الكرامَ ولا يستتر عنهم ولا عن أن يكون كريمًا مثلهم .

وشبَّه الشعراء الجاهليون القومَ الأقوياءَ بالسيوف الزرقاء القوية الحادَّة ، وجعلوا الرِّماحَ زرقاء للدلالة على صلابتها وحدَّة شباها، ومن ذلك قول عنترة بن شداد[٥] :

عَـوَالِيَ زُرْقًا من رمـاحِ رُدَيْـنَةٍ هَرِيْرَ الكلابِ يَتَّقِيْنَ الأفاعِيَا [٦]

ولم يُحمد اللَّون الأزرق عند شعراء الجاهلية سوى في وصف الماء ولون السَّماء .

---

[١] – الأعشى ، الديوان ، ص ٦٠ .

[٢] – تنخّلها : تخيّرها . بِكار القِطَاف : أوّل ما يُقطَف . الأزيرق : تصغير أزرق : أراد به الخَمَّار غير العربي . آمن إكسادها : يأمن كسادها لجودتها .

[٣] – المصدر السَّابق ، ص ٥٩ .

[٤] – لا يتغطَّى : لا يستتر بغطاء . لإنفادها : لانتهائها .

[٥] – عنترة بن شداد ، الديوان ، ص ٢١٤ .

[٦] – الزُّرق : المصقولة الصَّافية . رُدَيْنَة : امرأة تنسب إليها الرماح ، وقيل : هي جزيرة في البحرين .

النَّتائج والتَّوصيات

أولًا : النتائج :

من خلال هذه الدِّراسة توصل الباحث للنتائج التَّالية :

١- اقترنَتِ المرأة في الشِّعر الجاهلي كثيرًا باللَّون الأبيض ، وربَّما كان ذلك من قبيل بياض الزهرة وبياض الشَّمس وبياض الدُّمى والدُّرَّة ...

٢- شبَّه الشُّعراء الجاهليون المرأة بالدُّمية لِيضْفُوا عليها صفات الشَّرف والصَّفاء والعفة والتَّمَنُّع.

٣- شبَّه الشُّعراء الجاهليون المرأة بالغزالة ، وذلك من قبيل تشبيهها بالشَّمس؛ في إشارة منهم إلى رمزيَّة القداسة والمكانة المعتبرة للمرأة في الفكر العربي الجاهلي من جهة، وفي إشارة إلى رمزيَّة المرأة المثال في صورة الحسن الأنثوي من جهة ثانية ، وفي إشارة إلى رمزيَّة المرأة الأم والمرأة الحبيبة المنشودة من جهة ثالثة .

٤- شبَّه الشعراء الجاهليون المرأة بالمصباح والضوء والنور والنَّجم والقمر ، وفي هذه الأشياء يتراءى لنا اللَّون الأبيض لون الصَّفاء والتَّوهج والجمال .. والقمر من معبودات العربي قديمًا ، والمصباح والنور والضوء والإشراق توابعُ للشمس فيها صفات القداسة المنبعثة من المعبود الأكبر؛ وبالتالي فإنَّ تشبيه المرأة بهذه الأشياء انعكاسٌ لمكانتها الخاصة في الجاهلية .

٥- شبَّه الشُّعراء الجاهليون المرأة بالبيضة في رمزيَّة منهم لصحتها وسلامتها، والمحافظة عليها وحمايتها، ولبياضها وصفاء لونها ونقائه، ولخصوبتها؛ لأنَّ ظهور المرأة في الشعر الجاهلي بيضاء اللَّون يأتي من التَّفاؤل باستمرار الحياة وتجدد الأجيال وتتابع النَّسْل .

٦-ارتبط اللَّون الأسود عند العرب في الجاهلية بالظلام، والقبر والموت ، واستعاروا في كلامهم الأسود للأعداء ولليوم الذي يتوقعون فيه الشَّر ، لكنهم كذلك تفاءلوا بهذا اللَّون في بعض المواضع؛ كصناعة ما يُحَرِّزُون به صبيانهم من الشرور، وكارتباط الأسود عندهم بالسَّيد والسيادة .

٧-رَمَزَ اللَّون الأبيض عند العرب في الجاهلية للنقاء والطَّهارة والأمل والنور الإلهي والحياة والتَّفاؤل والجمال والسَّلام ، وما ذمَّ الجاهليون هذا اللَّون إلا في معظم مواضع ذِكْر الشَّيب .

٨-ارتبط لون الغبار عند الجاهليين بالحزن والكآبة والتَّشاؤم .

٩-ارتبط لون الرَّماد عند الجاهليين بالدَّمار والهلاك والمصائب العظيمة، والديار الخالية المقفرة، وهو كذلك لونٌ له رمزيته المرتبطة في مخيلة العربي في الجاهلية بالأسى والحزن وألم الفقد .

١٠-تنوعت دلالات اللون الأحمر عند الجاهليين ما بين لونٍ يدل على الحياة أو لون يرتبط في مخيلاتهم بالمعارك والقتل والعهود التي كانت بينهم ، وما بين لونٍ مرتبط عندهم بالنَّار؛ وذلك من قبيل القداسة التي كانوا يمنحونها لها، وفي الغالب فإنَّ هذا اللَّونَ لونُ شؤمٍ عند العرب في الجاهلية؛ فالموتُ أحمر، والبأس أحمر، والسَّنَةُ الشَّديدة حمراء، وشدَّة القيظ حَمَارَّةٌ، وجهنم حمراء .

١١-تفاءل العربُ في الجاهلية باللَّون الأخضر؛ فهو عندهم رمزٌ للنعيم والخير والحياة الرغيدة .

١٢-الأصفرُ لونٌ ارتبط عند العرب في الجاهلية بالشَّمس؛ لما لها من قداسة عندهم، وارتبط بالطِّيْب والزينة والذهب، لكنه من جهة أخرى لون له دلالته المشؤومة عند الجاهليين من حيث ارتباطه بالمرض والذبول والموت من جهة وارتباطه بالذل والانكسار من جهة ثانية .

١٣-الأزرق لونٌ مكروه عند العرب في الجاهلية؛ مما جعلهم يصبغون به في صُورِهم عيون الأعداء والجوارح من الطَّير والحيَّات وبعض الهوام، ولَوَّنُوا به صور التَّشاؤم عندهم؛ كتشاؤمهم من البسوس وهي زرقاء العينَيْن، والزَّبَّاء وزرقاء اليمامة، ووصفوا كلَّ عدوٍّ بالزُّرْقَة .

ثانيًا :التَّوصيات :

أوصي الباحثين مستقبلًا التَّوسع في دراسة هذا الموضوع ، ومن خلال قراءتي لدواوين الشُّعراء الجاهليين الذين استشهدتُ ببعض أبياتهم التي شكَّلَت العمود الفقري لهذه الدراسة؛ فإنَّني أرى أن يقوم الباحثون المهتمون بالأدب الجاهلي بدراسة ما يلي :

- دلالة اللَّون الأحمر في شعر عنترة بن شدَّاد .
- اللَّون الأبيض وعلاقته باللهو والمتعة عند الأعشى .
- اللَّون الأبيض لون التَّفاؤل عند لبيد بن ربيعة .
- اللَّون الأبيض ودلالته النَّفسيَّة عند امرئ القيس .
- اللَّون الأبيض ودلالته الاجتماعيَّة والنَّفسيَّة عند النَّابغة الذبياني .

والحمد لله أولا وآخرًا .

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .

٢- د . إبراهيم الفيومي ، الفكر الديني الجاهلي ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٩م.

٣- ابن الأنباري ، شرح القصائد السَّبع الطِّوال ، ضبطه وعلَّق عليه بركات يوسف هبُّود ، المكتبة العصريَّة ، بيروت ، ١٤٣٢هـ .

٤- ابن السَّائب الكلبي، كتاب الأصنام ، تحقيق د/ محمد عبد القادر أحمد وأحمد محمد عبد القادر، مكتبة النَّهضة المصريَّة ، القاهرة ، بدون رقم طبعة ، ١٩٩٣م .

٥- ابن سيرين ، تفسير الأحلام الكبير ، دار الفكر ، بيروت، الطَّبعة الأولى ، ١٩٩٦م .

٦- ابنُ فارس، معجم المقاييس فِي اللغة، تحقيق شهاب الدِّين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٥هـ.

٧- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق ياسر سليمان أبو شادي، وغيره ، دار التَّوفيقيَّة، القاهرة .

٨- أبو تمَّام، الديوان ، ضبطه شاهين عطية ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٩- أبو طالب، الديوان، جمعه وشرحة د. محمد التونجي، دار الكتاب العربي، بيروت،ط١، ١٤١٤هـ.

١٠- أبو هلال العسكري ، كتاب جمهرة الأمثال ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وغيره ، المكتبة العصريَّة ، بيروت ، ١٤٢٦هـ

١١- أبو هلال العسكري ، كتاب الصِّناعَتَيْن – الكتابة والشِّعر – ، تحقيق مُفيد قميحة ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ .

١٢- د. أحمد إسماعيل النّعيمي ، الأسطورة فِي الشِّعْر العربي قبل الإسلام ، دار سيناء للطباعة والنَّشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥م .

١٣- الأزرقي ، أخبار مكة ، تحقيق رشدي الصَّالح ، دار الأندلس ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٨٣م .

١٤- امرؤ القيس ، الديوان ، تحقيق حنا الفاخوري ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ .

١٥- امرؤ القيس، الديوان، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ، القاهرة، الطَّبعة الخامسة.

١٦- د. أنور عليان أبو سويلم ، الإبل في الشعر الجاهلي – دراسة في ضوء علم الميثولوجيا والنقد الحديث –، دار العلوم ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ .

١٧- أوس بن حجر ، الديوان، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٣٩٩هـ.

١٨- بِشر بن أبي خازم ، الديوان، شرحه د. صلاح الدين الهواري، دار ومكتبة الهلال، بيروت ،ط١، ١٩٩٧م .

١٩- الثَّعالبي، فقه اللغة وسر العربيَّة، شرح د/ ياسين الأيوبي، المكتبة العصريَّة ، بيروت ، ١٤٣٢هـ ، .

٢٠- الجاحظ ، كتاب الحيوان ، وضع حواشيه محمد باسل عيون ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٩هـ

٢١- د. جواد علي،المفصَّل فِي تاريخ العرب قبل الإسلام،بيروت، دار العلم للملايين،ط٢، ١٩٧٨م .

٢٢- حسَّان بن ثابت، الديوان، ضبطه وصححه عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٠هـ .

٢٣- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي – الأدب القديم، دار الجيل، بيروت،ط١، ١٩٨٦م .

٢٤- الدُّميري ، حياة الحيوان الكبرى ، تحقيق محمد الفاضلي، المكتبة العصريَّة، بيروت، ١٤٢٦هـ.

٢٥- الزمخشري،الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فِي وجوه التأويل،دار الكتاب العربي،بيروت .

٢٦- زهير بن أبي سُلمى ، الديوان ، صَنْعَةُ أبي العبَّاس ثعلب ، وضع هوامشه وفهارسه د/ حنَّا نَصر الحتِّي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٦هـ .

٢٧- طَرَفَة بن العبد ،الديوان، شرح مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ .

٢٨- طفيل الغنوي ، الديوان ، شرح الصمعي ، تحقيق حسَّان فلاح ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م .

٢٩- د.عبد العزيز نبوي، المرأة فِي شعر الأعشى دراسة تحليليَّة ،دار الصور لخدمات الطِّباعة ،القاهرة، ١٩٨٧م .

٣٠- عبد الفتاح رياض، التَّكوين فِي الفنون التَّشكيليَّة ،دار النَّهضة العربية، القاهرة ،ط٢، ١٩٨٣م.

٣١- عبيد بن الأبرص ، الديوان ، شرح أحمد عدرة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ،ط١، ١٤١٤هـ .

٣٢- علي البطل ، الصُّورة فِي الشِّعْر العربي حتَّى آخر القرن الثَّالث الهجري، دراسة فِي أصولها وتطورها، دار الأندلس ، بيروت ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٩٨٣م .

٣٣- عمرو بن كلثوم، الديوان، تحقيق أيمن ميدان، النادي الأدبي الثقافي بجدة، جدة،ط١، ١٤١٣هـ .

٣٤- عنترة بن شدَّاد ، الديوان ، شرح الخطيب التَّبريزي ، تحقيق مجيد طرَاد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤١٨هـ .

٣٥- فاتن عبد اللطيف العامر ، القيم الأخلاقية في شعر عنترة بن شداد العبسي – دراسة موضوعيَّة وفنية – ، نادي القصيم الأدبي ، ١٤٣٠هـ .

٣٦- قيس بن الخطيم ، الديوان ، تحقيق د. ناصر الدِّين الأسد ، دار صادر ، بيروت .

٣٧- لبيد بن ربيعة ، الديوان ، شرح الطُّوسي ، وضع هوامشه وفهارسه د. حَنا نَصر الْحِتِّي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٤هـ .

٣٨- مُحمد بن سلام الجُمحي ، طبقات فحول الشعراء ، شرح محمود شاكر ، دار مدني ، جدة .

٣٩- محمد حافظ ذياب ، جماليات اللَّون فِي القصيدة العربيَّة ، مجلة فصول ، العدد الثَّاني ، ١٩٨٥م .

٤٠- د/ محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عند الجاهلية ودلالاتها ، دار الفارابي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م .

٤١- د . محمد محمد أبو موسى ، الشِّعْر الجاهلي دراسة فِي منازع الشُّعراء ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٩هـ .

٤٢- النَّابغة الجعدي، الديوان ، تحقيق وشرح د/واضح الصّمد، دار صادر، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٤٣- النَّابغة الذُّبياني ، الديوان ، شرح وتحقيق سيف الدِّين الكاتب وأحمد عصام الكاتب ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٨٩م.

٤٤- د / نصرت عبد الرحمن، الصُّورة الفنيَّة فِي الشعر الجاهلي فِي ضوء النَّقد الحديث، مكتبة الأقصى، عَمَّان، الطَّبعة الثَّانية، ١٩٨٢هـ.

٤٥- نورمان بريل ، بزوغ العقل البشري ، ترجمة إسماعيل حقي ، مكتبة نهضة مصر ومؤسسة فرانكلين ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

٤٦- د . يوسف حسن نوفل ، الصُّورة الشِّعريَّة والرمز اللَّوني ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٥م .